



GAYLAMOUNT
PAMPHLET BINDER

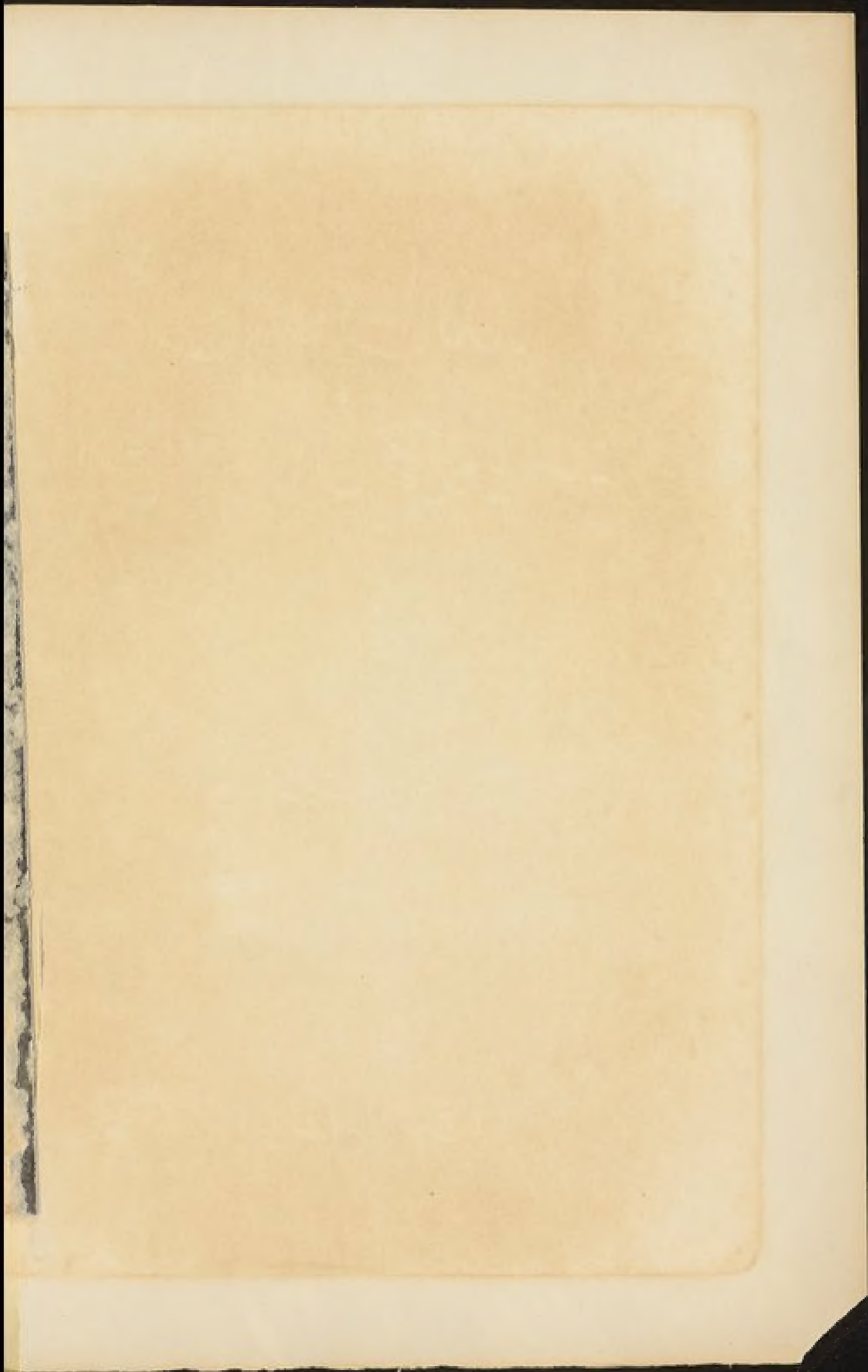
Manufactured by
GAYLORD BROS. Inc.
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







A
86

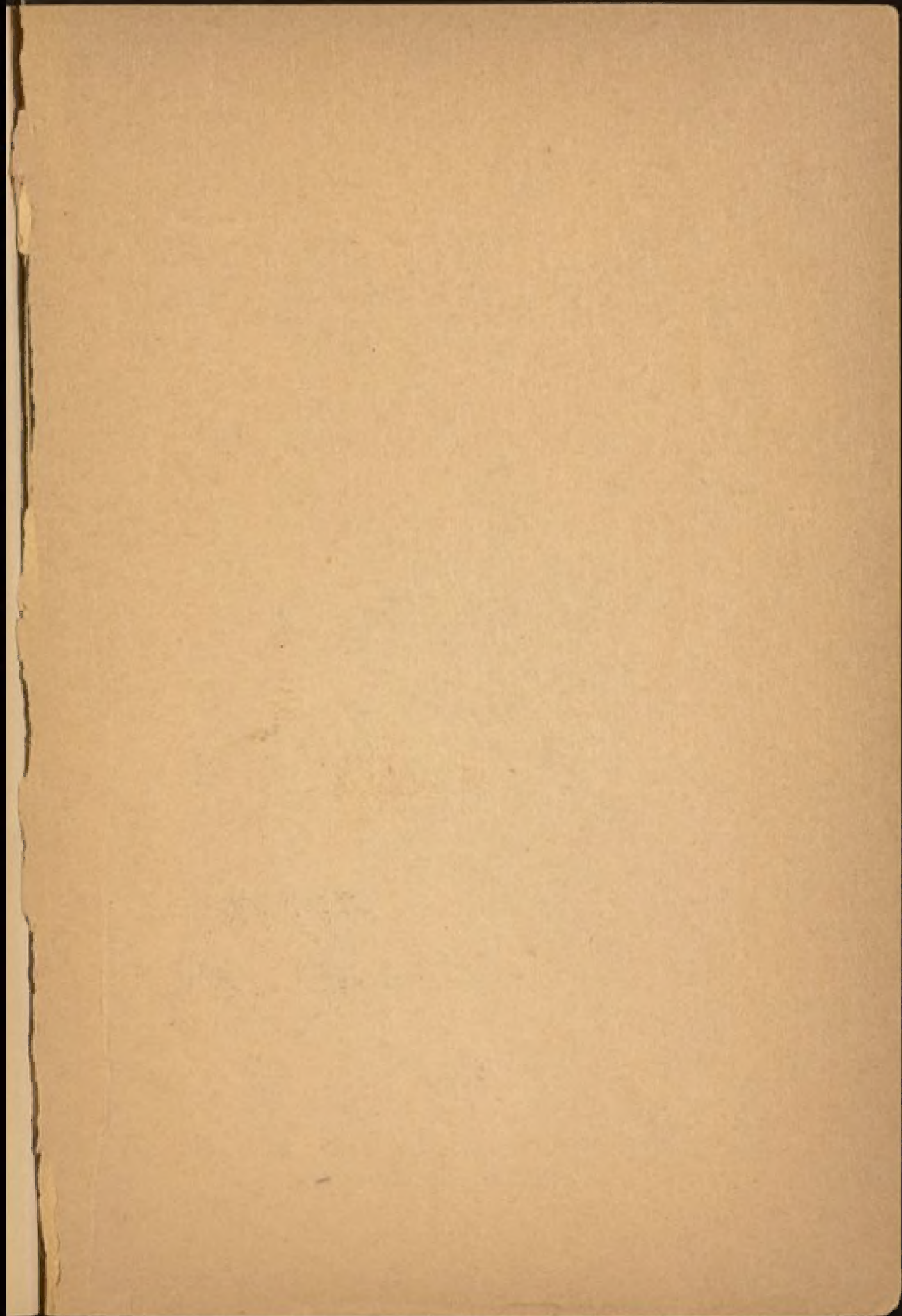
فِي شِئَانِ اللَّهِ
أَوْ
تَارِيخِ السُّودَانِ كَمَا يَرَوِيهِ أَهْلُهُ

تأليف

محمّد أحمد البجاري

الناشر

دار الفكر العربي



فِي شَأْنِ اللَّهِ
أَوْ
تَارِيخُ السُّودَانِ كَمَا يَرَوِيهِ أَهْلُهُ

تأليف

محمد أحمد الجابري

الناشر

دار الفكر العربي

مطبعة النهضة

بغداد

مطبعة النهضة مطبعة النهضة

962.4

5113

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

أما بعد فقد طلب إلى صديقي الأستاذ محمد أحمد الجابري تقديم رسالته في شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله ، إلى أبناء الوادي الأفاضل الذين يهمهم الوقوف على كل ما يكتب أو يقال عن السودان وعن أهله بحثاً وراء الحقيقة وإرواء لظماً حب الاستطلاع والمعرفة فأحجمت في بادئ الأمر لأسباب عدة منها أني لا أعد نفسي من زمرة الراسخين في العلم الذين أفنوا العمر في البحث والاطلاع والكتابة والنشر حتى تصدروا صفوف العلماء والمتعلمين وبزوا الباحثين والمؤلفين فبعد صيتهم وارتاحوا إلى ما أدركوا من شهرة واسعة اتبح لهم الاكتفاء بتنسيق المقدمات لكل كتاب يطبع وأجزاء المقالات في تعريف أصحاب المؤلفات إلى جمهور القراء الكرام . وإن كنت قد نزلت في آخر الأمر على رأي صديقي الأستاذ محمد أحمد الجابري فخرصت على التقديم لكتابه القيم . فانما أفعل ذلك مستجيباً وحسبي شفيعاً لي عند القاري الكريم تلك السنوات العشرين التي قضيتها في

دراسة وتدریس تاریخ القطرین الشقیقین مصر والسودان — وما
وانجزته من بحوث — علی وجه الخصوص فی نفس الموضوع الذی
یکتب فیہ الیوم الأستاذ الجابری وفضلاً علی أن التقدیم لهذه الرسالة
التي بأیدی القاریء الکریم يعد فی حد ذاته متعة وأی متعة . ذلك بأن
الأستاذ محمد أحمد الجابری من الرجال المصریین القلائل الذین قضوا
فی خدمة حكومة السودان سنوات عدة واختلطوا بالسودانیین قبائلهم
وعشائرهم فعرف عاداتهم وأخلاقهم وأدرك کثیرین ممن حضر والوفائع
التي دون أخبارها فی رسالته وكان لروابط النسب والمصاهرة التي ربطت
بینه وبين الأسر الکریمة فی القطر الشقیق أعظم الأثر فی أن یرکن
إلیه السودانیون ینقلون إلیه أخبارهم علی حقیقتها — ویکشفون له
عن خفايا نفوسهم ویطلعونه علی هواجسهم ویبسطون له أمانیهم .

واندمج الأستاذ محمد أحمد الجابری فی أوساط السودانیین اندماجاً
تاماً فتذوق آدابهم وحفظ أشعارهم و (أزجالهم) وعرف ما تنطوی
علیه أمثالهم وأقوالهم من معان لا یدرکها سوى السودانیون أنفسهم
بل أنتهی به الأمر إلی إتقان لهجات ولغات العشائر والقبائل السودانية
العربیة والزنجیة علی السواء . أضف إلی هذا أن الأستاذ لم تنقطع صلاته
بالسودان وأهله بسبب اعتزاله الخدمة ، بل أن هذه الصلات ما زالت
بفضل الله نامیة وطیلة یقصدہ أفاضل السودانیین عند زیارتهم للقاهرة ،
یتحدثون إلیه فی أخص شئونهم ویمدونه بفیض من المعلومات الصحیحة
عما یجرى ویحدث بالسودان . حتی أصبح الأستاذ بحق بمثابة موسوعة

من الموسوعات التي لا غنى لسكل باحث في شئون السودان وتاريخه عن الرجوع إليها ، والانتقال منها ، وإني لطيب في أن أذكر في هذا المقام ما سبق أن ذكرته عند تصدير كتابي الأخير ، الحكم المصري في السودان ، أنه كان لارشادات الأستاذ الحكيمه أفضل الأثر في إخراج ذلك الكتاب في صورته التي نشر بها . أضف إلى هذا أن هناك كثيرين غيري حرصوا على الانتفاع بمواهبه فكان الأستاذ محمد احمد الجابري أحد الخنود الذين أقبلوا على العمل في خدمة قضية الوادي المقدسة من غير جلبة ولا ضوضاء تحذوهم الرغبة الصادقة في إعلاء شأن الوطن وتحقيق أماني البلاد المشروعة في وحدتها المقدسة .

والكتاب الذي بأيدينا جديد في أسلوبه وطريقته ويسد نقصا ظاهرا في كل ما كتب ونشر عن السودان وأهله . ذلك بأن المؤرخين الذين تناولوا قصة السودان ، حرصوا على دراسة الوثائق والأوراق الحكومية وبحث ما كتبه الرحالون والمعاصرون الأجانب من مطبوع ومحفوظ قبل أن يسجلوا وقائع هذه القصة ويحاولوا تفسير دقائقها وهذه جهود حميدة تقضيهم أن يبذلوها ولا شك أساليب البحث العلمي الحديث . ومع ذلك فاتهم شيء واحد أو قل أنهم أرغموا إرغاما على إغفال ناحية هامة من نواحي هذه الدراسة الواسعة ، هي موقف السودانيين أنفسهم من الحوادث التي كانت تجري بيلاذهم وآراؤهم فيها ، وتفسيرهم لها ونظرم إليها منذ أن بدأ السودان يأخذ بأسباب الحضارة والرقى على يد محمد علي إلى الوقت الذي اندلع فيه هيب الثورة

المهدية . وسبب هذا الإغفال واضح جلي فقد عرف السوداني بالذكاء
وحبائه المولى عز وجل بقرينة وقادة وذاكرة حافظة واعية . فاعتمد
السودانيون على الرواية ينقل الأحفاد عن أجداد والآباء عن الآباء ،
أخبار الوقائع وتفصيلها ، وصاروا يصفون بتسجيلها فلم يصل إلى
أبدنا سوى تواريح ثلاثة مشهورة معروفة . الأول كتاب الطبقات
في خصوص الأولياء ، والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لصاحبه
محمد ضيف الله بن محمد الفضلي الجملي المتوفى في عام ١٨٠٩ والثاني في
مدينة ستار وهو مخطوط . نسخه كثيرون وأضافوا إليه زيادات
وصلت بحوادثه إلى عام ١٨٧١ ميلادية وجاء ما دون فيه بعد دخول
المصريين إلى السودان ، والثالث كتاب السودان المصري والإنكليز ،
وهو عبارة عن مجموعة رسائل نشرتها جريدة الأهرام القراء قبل أن
يضم شتاتها كتاب واحد في عام ١٨٩٩ وصاحب هذه الرسائل الشيخ
محمد القباني ويعد سودانيا وإن كان مولدا من أب تركي وأم صعيدية
نزع إلى السودان وعاش طويلا بين أهله وتزوجت أخت له من محمد
أحمد المهدي وقد عمر الشيخ طويلا وما يزال على قيد الحياة . يسكن
حلة حمد في الخرطوم بحري ، وحضر أكثر الوقائع السودانية من أيام
غردون ووقف على دقائق الثورة المهدية وشهد ذبوعها وانتشارها .
وكتاب الشيخ القباني فريد في نوعه لأن صاحبه حاول أن يبرزه في
صورة ظاهرة ما كان يختلج في نفوس السودانيين من عواطف ويحول
في أذهانهم من أفكار وخواطر نتيجة لرد الفعل الذي نجم من تلك

الاجراءات التعسفية التي عمد إلى اتخاذها بيكر وغردون وأعوانهما من
الحكام ، الكفار ، تحت ستار إبطال الرق والقضاء على النخاسة في
السودان . وقد نجح الشيخ القباني في إظهار العلاقة بين ذلك كله وبين
ظهور دعوة محمد أحمد وذبوع المهدي في السودان ولعل أهم ما يسترعى
النظر في كل ما كتبه الشيخ القباني ، أن السودانيين كانوا يعتقدون
اعتقادا جازما بأن الإنكليز ، والإنكليز وحدهم هم سبب كل تلك
الكوارث التي نزلت بالسودان وأهله وأنهم أصحاب تلك المؤامرة
الشائنة التي انتهت بقيام الثورة ، وإرغام مصر على إخلاء الفطر الشقيق
حتى يتفردوا هم بحكمه ويتوصلوا إلى إنفاذ مآربهم في تلك البلاد على
حد قوله .

وقد حاول الأستاذ محمد أحمد الجابري في كتابه الذي بين أيدينا ،
أن يكمل في الحقيقة رسم تلك الصورة التي حاول الشيخ محمود القباني
رسمها منذ نيف وخمسين عاما ذلك بأن الشيخ اختص كل مقالاته تقريبا
بذكر حوادث الثورة المهدية الاولى فلم يعم بذكر تفصيلات ما كان
يلقاه الجلابون وسائر الاهلين من عنف وإرهاق على يد السير صمويل
بيكر وخليفته غردون في مديرية خط الاستواء بسبب ما اتبعه كلامهما
من خطة مصادرة الاموال والأرزاق وسفك الدماء وإزهاق الأرواح
ثم ما فعله غردون نفسه عند تعيينه حكاما للسودان أي حاكما عاما أو
عند حضوره لتنفيذ سياسة الاخلاء المدبرة فانبرى الأستاذ الجابري
ليبين الأثر العميق الذي أحدثه ذلك كله في نفوس الاهلين . وفضلا

عن ذلك فقد اجتمع لدى الأستاذ الجابري من أقوال السودانيين أنفسهم الذي شهدوا وقائع مطاردة الجلابين والأهلين الوادعين المسلمين في كردفان ودارفور وبحر الغزال وعاصروا حوادث إعدام سليمان الزبير وقتل الصباحي وهارون ابن إبراهيم سلطان دارفور ما جعله يحزم بأنه لولا هذه المذابح لما علا شأن المهدي في السودان ولما انتشرت المهديّة في ربوعه لأن استشهاد الزعماء والقادة أمثال سليمان والصباحي وهارون ثم احتجاز الزبير رحمه باشا في القاهرة — كان كل هؤلاء موضع ثقة السودانيين العظيمة ، مرعان ما أدخل الميدان في السودان لظهور محمد أحمد ، وكان من عوامل الاغراء القوية التي دعت الفقيه الامام لاعلان أنه المهدي المنتظر وكما كانت رسائل الشيع محمد القباني تنظمها فكرة واحدة هي مسمى الانكليز في تاليب السودانيين على أخوانهم المصريين ونشر الفاسد في البلاد وإرغام مصر على إخلاء شطر الوادي الجنوبي فان كتاب الأستاذ الجابري يقوم على فكرة ظاهرة قد تفسر حقيقة هذا السعي أو هذه المؤامرة الانكليزية هي أن سياسته إلغاء الرق وإبطال النخاسة باستخدام السيف والنار تحت ضغط الاسكندر ، كانت سببا قاطعا في إثارة الحق ضد حكومة الخرطوم وإشعال نار الثورة . ولما كان المهيمنون على هذه الحكومة من الأوروبيين وأهل الليفانت الذين عرفهم السودانيون باسم الكفار ، فقد سهل أن تصبغ هذه الثورة الخطيرة بصبغة دينية ، وأن يدعو محمد أحمد إلى الجهاد في سبيل

الله أو في شأن الله ، هذا الدماء الذي اختاره الأستاذ الجارى
عنوانا لكتابه .

وأما مبلغ توفيق الأستاذ في إبراز هذه الحقائق فإن ذلك من
شأن القارئ الكريم أن يفصل فيه وحده بعد قراءة هذه الرسالة
الممتعة وحسي أن اختتم هذه الكلمة فاقول أن الأستاذ الجارى قد
أسدى للتاريخ خدمة جليلة في هذه المحاولة التي أراد أن يكشف بها عن
أراء السودانيين أنفسهم في أسباب ظهور الإمام محمد أحمد واندلاع
غيب الثورة المهدية .

محمد فؤاد شكرى

القاهرة سبتمبر ١٩٤٧

توطئة الكتاب

هذا تاريخ السودان كما يرويه أهلنا نُسبته

« في شأن الله »

رديدا للصيحة الداوية التي عمت السودان وترديدا لقوله تعالى
« إن تنصروا الله ينصركم » فما كاد الامام محمد أحمد يقولها باللغة المحكية
حتى خلبت الأذهان وانسابت في النفوس وصارت تجري على كل لسان
وبفعل الحوادث والاحداث وعوامل الزمان والمكان ، انارت
النخوة في النفوس وصار الكل من « الانصار » — انصار المهدي —
يردها فكانوا شبه بنهر طفي وقاض ملؤه من فوق الجسور فاغرق
الحقول وخرب المزارع ولم يبق اندفاعه شيئا أمامه .

وهذا التاريخ ما هو الا نتيجة لاقوال صادقة . وثمرة اختبارات
شخصية دقيقة ، تحملت في ضم شتاتها مشقات ، وعانيت في الوقوف
عليها صعوبات . فقد استقيمتها من رجال ميامين كانت لهم مكانة مرموقة
بالاجلال في عهدي . التركية السابقة ، و « المهدي » .

ولما كانت اقوالهم تفيض اخلاصا وصدقا — مما لم تستوعبه

الكتب ولا يمكن أن يلم بها أى مكتوب ، فقد اختزنتها وراعيته في حكمة
وتقدير حتى أن لي أن ادعها تخرج للناس ليرى - أبناء هذا الجبل -
رأبهم فيها : سائلا المولى عز وجل أن يوفق الحاضرين لما وقفت دونه
جهود السابقين .

وتاريخ السودان هذا بسيط يسرد الحوادث ويصف المآسى
لا قيمة خاصة به بل تبعاً لما أثاره في نفسى من احساس وفي ذهنى من
تفكير وهو يعنى ما طرأ على السودان في الفترة من سنة ١٨٦٩ الى
سنة ١٨٨٥ ميلادية من حوادث وانار ، وخواطر وافكار ، ووجدانات
ومشاعر ، وافعال ومآثر . ومشاهد ومناظر . وتراث الاوائل للواخر
لتعبد الغابر للحاضر . وتصف اولى العزم ومآثرهم ، ومناقب ذوى الفضل
ومفاخرهم ، في زمن فتن نازره ، وخطوب طائرة ، وحروب دائرة .
وصروف جائرة ، ومكارم بائرة ، ونفوس حائرة لذا ارجو
القارىء الكريم أن لا يحاول تحميل هذه الرسالة اكثر مما تحمل ويتقبلها
على علاقتها بصورة من نفس صاحبها يقدمها الى اقاربه وأصدقائه في
السودان . . . وإذا استطعت أن اصحبهم في رحلتى الفكرية . وأخفف
عنهم ملل الحاضر بمآسى الماضى . فقد نجحت في أطيب المهمات الى
نفسى . أن ارتاد معهم ماضيا يشعرون فيه بشعورى ويفكرون
فيه بتفكيرى .

ولست ادعى أنى مورخ فان هذا لقب اسمى من أن أصل إليه . . .
ولكن دعنى ألقت النظر الى اتنى في الستين من عمرى وانى صرحت

نصف هذا العمر في السودان . كان لي الحظ أن تزوجت منه ولى أولاد وبنات وصلة رحم بين أطيب العشائر واکرم العائلات ، وقد درجت على حب السودان والاعجاب بأهله وقضيت أهم أدوار حياتي في ربوعه : بين الشمال والجنوب ، والشرق والغرب ، فتمكنت في أواخر الحب والإعجاب بأهل السودان : فلما عدت إلى الرف ، أى مصرنا العزيزة استحال الحب والإعجاب إيماناً بكل ما هو سوداني .

كانت حياتي في السودان متسعة الآفاق متشعبة الأطراف وأن قلبي ليفيض بآلاف الذكريات الكريمة ، وحافظني لثغى الأحداث العظيمة . ومن العسير أن يصف المرء ذكرياته ثم يحترها كما يحتر الجمل علفه أمام ماتديه الجرائد الانكليزية والصحف الانفصالية من التشيع بماض مصر في السودان — حيث يقولون أنه كان عهد استبداد واستعباد ورشوة — فكانت هذه الأسباب — كما يدعون — بواعث الثورة المهدية .

ومن العجب أن أكثر الباحثين والمفكرين في هذه الأيام الذين تناولوا تاريخ السودان ، لم يكتبوا عن بواعث الثورة المهدية كتابة وافية بل تركوا هذه الناحية دون أن يوفوها حقها من البحث والدرس مع أن الثورة المهدية كانت — بلا مراء — السبب الرئيسي لذلك التحول الذي حدث في مقدمات السودان والذي لم يلاها لما كانت تلك المحنة التي نعانيها اليوم .

ومما يؤسف له حقاً أنه منذ تدخل الانكليز في شؤون مصر جرت الاقدار بأن تظل كثير من وقائع التاريخ المصري — السوداني بجهولة أو أن

كتب التاريخ ظلت تجدد فيما دأبت على إذاعته الأخبار الرسمية معينة
لا ينضب تعتمد عليه في سرد وقائمه فاشتملت هذه الكتب لسوء الحظ
على أشياء كثيرة لم يكن بينها وبين الحقيقة أية صلة .

نعم كُنيت كتب ودونت رسائل عن السودان في الفترة التي تلت
ظهور النفوذ البريطاني ولكنها قالت أشياء تخالف ما جرت به الحوادث
وبعبارة أخرى أن هذه الكتب وتلك الأسفار كانت محاطة بالعناية والرعاية
ومتأثرة بالإيجاء والاملاء بفعل المهيمنين على مجرى الأمور فامتلات الكتب
وقاضت الأسفار بالظعن والتشويه وصب أفضع اللعنات على الأتراك
والجلايين والنحاسين والأنصار والدرأويش - أنصار المهدي ودراويشه
كأنما هؤلاء كلهم مخلوقات من طينة أخرى فكانوا في نظر أصحابها عمالقة
طغاة ونحن أبناءهم القاسدون ، وما كانوا إلا رجالا مثلنا من الآباء
والأجداد - انحدرنا من أصلهم بل هم الذين أوجدوا ما في الأحياء
من الأفكار والمشاعر وإلهم ترجع أسباب حركة أهل هذا العصر - فالأمة
مصرية بتأثير أمواتها أكثر مما هي مصرية بتأثير أحيائها .

نقول أنه لما استيقظ الوعي القومي في مصر وفي السودان وأراد
الكتاب والمحدثون أن يكتبوا عن الفترة من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٨٨٥
لم يجدوا سوى تلك المدونات المفروضة يتلون فيها ويتقلون ما حوته بطونها
خامات كتاباتهم ملأى بالسياب - من حيث لا يشعرون - والخط من شأن
أولئك الآباء والأجداد ثم صاروا يعدون أعمال المعتدين من الظلة والطفأة
كأنما هي أعمال انسانية تدفع أصحابها الرأفة والرحمة بيني الإنسان فكانت

معرفتهم بالسودان مستمدة من الكتب التي نشأوا وشبهوا على قراءتها حسب
ولم يكن مجرد منع بيع الرقيق وجلبه ومصادرته في أعالي النيل المسألة
التي أثارت السودانين ، بل الذي أثارهم وسود الضياء في عيونهم هو
مصادرة الرقيق المولد والموجودة في حوزة أسياده . وهذه المصادرة أصبح
السودان بمثابة عربة بدون عجل أو كطير بلا ريش . فقد ظل الحال
ساكنا مدة وجود صموئيل بيكر في خط الاستواء وفي أثناء مأمورية
غردون كذلك ولكن بمجرد أن صار تصيب غردون حاكما عاما من سنة
(١٨٧٧ إلى سنة ١٨٧٩) بعد أن كان حاكما وحسب على مديرية خط
الاستواء . لم يلبث أن عانى السودانيون على اختلاف أطرافهم من
الاضطهاد والشدة والضيق والجوع والفقر ما لم يسبق له مثيل في كافة
العصور وذلك بفضل أساليب العنف والشدة الصارمة التي اتبعها غردون
من أجل تحصيل الطلبة أي الضريبة ومن أجل القضاء على الرق والنخاسة
بالسيف والنار في ربوع السودان .

وإذا جاز لغردون وصناعته من الأجانب قتل سليمان الزبير وأعمامه
غردا في بحر الغزال وهارون الرشيدى في دارفور والصحاحى في كردفان
وقبيلة مسلم في النيل الأبيض بتهمة أنهم عصاة أو متعربين أو جلاية
من تجار الرقيق . فما ذنب النساء والأطفال ؟ ما ذنب البتامة والآيى
الذين قتل آباؤهم ورجلهم ؟ ما ذنب هؤلاء حتى يساقوا ذرافات من دارفور
إلى كردفان سوق الأغنام حفاة عراة . وأي قانون وأي عدل يسوع
لمثل غردون وصناعته من غلاظ القلوب أن يعملوا على إفقار البيوت

من أهلها وانتهاك حرمانها كما فعلوا في دارفور وغيرها من البلدان ١
رأى العرب — عرب السودان — بعدما دهمتهم المصائب وتوالت
عليهم التوائب فهم وصلوا إلى حالة من الخطر لم يسبق لها مثيل في أخرج
الآزمات فما لبثوا أن لموا شعهم وصحوا بما أصابهم من الذهول ثم وثبوا
وثبة الأسود دفاعا عن كياناتهم وكيان أمتهم مفضلين الموت في سبيل الحياة
على الموت أذلا . مهانين .

وعلى ذلك فقد نجح غردون في إيجاد الثورة بما هيأ لها من بواعث
وقدم لها من موجبات ولولا — أى غردون — لما كان المهدي على حد قول
(سدي لو) في كتابه « مصر في دور الانتقال » إذ بعد أن نعى (سدي لو)
على غردون تسرعه في محاربة الرق واندفاعه الجنوني في إبطاله فورا دون
إمهال كشب (في صفحة ٦٨) مانصه :

« لا شك عندي في أن الحرب الصليبية التي شنها غردون على الرق ،
« بلا هوادة » كانت الوسيلة المفضية إلى الغرض المقصود : وهو قيام
« الثورة ضد الحكم المصري » ، فلولا غردون لما كان المهدي ذلك أن غردون ،
« ما لبث أن أضاف إلى الاستياء الناشئ من تصرفات موظفي الخديوي ،
« تصديه متممدا للصالح الخاصة باندفاعه الجنوني ضد حيازة الرقيق ،
« بما يعتبر اعتداء على الملكية الذاتية في أخص خصائصها وأقدس أسسها ،

وفضلا عن ذلك فقد عني باظهار هذه الحقيقة أحد معاصري غردون
ومن عملوا فترة من الزمن تحت إدارته هو الضابط الأمريكى شاليه لونج
بك في كتابه « مصر وأملها الضائعة »

« إن أقاليم مصر الجنوبية قد سرفت من مصر لأسباب في غاية
« الخطورة والأهمية ، ومصر لا تستطيع أن تتخلى عنها وأن لا عيدين ،
« القول مكرراً بأن مصر . دون غيرها . هي التي يتوفر لديها - داخل ،
« حدودها الخاصة - شعب يصلح صلاحية تامة لخدمة هذه الأقطار ،
« الأفريقية وإلى هذا الشعب - لا إلى البعثات الأجنبية - يجب أن ،
« يتجه عاهل مصر وكل محب للجنس البشرى . »

« وإذا شامت العناية الإلهية أن تسعد أقاليم أفريقيا الوسطى ،
« بوسائل إنسانية فإن هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة الشعب ،
« المصري وعلى يده وحده يقوم الإصلاح . »

« حقا أن السودان لا يهدأ له قرار . ولكن هذا القلق ليس إلا ،
« شبحاً لا يلبث أن يختفي غداة جلاء الانكليز . . . فإن بقاء الانكليز ،
« وحده - في مصر - يكفي لتفذية هذا القلق . »

هذه الحقيقة التاريخية التي نشرها امريكي محاييد عقب الاحتلال
الانكليزي لمصر والسودان - بفترة قصيرة - لا تزال تلفت النظر بعد
مضى نصف قرن تقريبا كأنما قد قيلت بالأمس فقط .

ولاجل اتمام البحث واستكماله وتناوله من جميع اطرافه . رايت
أن أقدم الكلام عن الحكم المصري المعروف « بالتركية السابقة »
عن الكلام عن بواعث الثورة المهدية : لأننا اذا اغفلنا ذلك
وتسكنا عن موجبات الثورة ودوافعها . كما استقيناها من افواه أهل
السودان - نكون كن بدأ يشهد تمثيلية بعد أن فاتته منها بعض
فصولها الأولى

ولا بد لي في الختام من ابداء كلمة شكر واجلال اهنسهما الى المؤرخ
الطائر الصبب العلامة الدكتور محمد فؤاد شكرى أستاذ التاريخ بجامعة
فؤاد الأول لتفضله على بتقديمه جعلتها قلادة في جيب هذه الرسالة . وقد
ضاعف جميله بما أسدى إلى فيها من الثناء . وما أبداه من الحفاوة
برسالتى بما أملاه عليه جميل فضله وخالص حبه للسودان وأدله وأن
مكاته السامية في عالم التاريخ وشهرته الذائعة في أندية الادب تزيد إلى
ذلك الفضل جمالا وهذا العطف إجلالا .

وأقضى أمانى أن تتحقق آماله وأمالى في مستقبل السودان وأن تتم
الوحدة بين الشطرين للعمل على خلق جيل يشعر بالحياة الحرة متمشيا
نحو المظمح الخطير مع الثواميس الطبيعية على ادماج الوادى من
الأسرة المتحضرة العالمية .

وما يطيب لى أن اعترف بالارشادات القيمة التى أقيمتها من أصدقائى
الافاضل حضرات الأساتذة محمد على محمد وكيل الرى المصرى فى
السودان ومحمد خليل مترجم تركى اللبوان العالى وحسين منصور
بجمع فؤاد الأول للغة العربية كما أشكر لصدىقي محمود افندى
عبد المنعم أمين مخازن الإمتحانات بوزارة المعارف لما بذله من جهد
ومعونة صادقة فى تصحيح البروفات وإعدادها للطبع . جزاهم الله عنى
خير الجزاء

الفصل الأول

التركية السابقة

« فتح السودان بناء على دعوة من أهله ضم السودان
لمصر واعتباره وحدة مشتركة . تقدم السودان نحو المدينة
والخضارة والممران . اشترك الأهالي في الحكم »

يسمى السودانيون المدة التي سبقت تدخل الإنجليز وفيها الثورة
المهدية ، عصر التركية السابقة ، وهو يتعدى من عهد محمد علي باشا إلى
عهد توفيق باشا

ولم تكن الأسباب التي أفضت في جوهرها إلى ضم السودان لمصر
طالب المنفعة أو مجرد التجارة أو السيطرة والشهرة أو الاستغلال بل
كانت للروابط الطبيعية والحيوية والقومية والسياسية وروابط اللغة
والدين والدم هم الأسباب التي دفعت محمد علي باشا دفعا لفتح السودان
وإخفافه بأملاته المصرية .

على أنه توجد إلى جانب ذلك أسباب أخرى هامة هي أن حكومة
منار كان يعمها الخلل والفوضى والفساد حين ذاك فأوعزت إلى الملك
نمر أن يبطش بالملك بشير عمدة بلاد الجعليين فلما أدرك الأخير أن لا
محيص من هلاكه ونزع الرئاسة من أهل بيته فر إلى مصر عن طريق

عظمو أبو محمد وذلك في أوائل ١٢٣٢ هجرية لاجئا . ذلك لأنه ليس
للسودان مدخل ولا مخرج بخلاف مصر فهي حصن السودان الذي
يحتجى فيه المحتامون ويلجئون إليه هربا من طغيان الطغاة وعسف
المنعسفين .

وكان محمد علي باشا قد علم بقسوم الملك و الملك و بشير واد عقبه
منذ حلوله في الحدود المصرية فأوقف جماعة من حاشيته للقائه والترحيب
به باسم الحكومة المصرية وكانت مظلة باهرة شائقة طار لها بشير
وأتباعه فرحاً فقام من بينهم رجل يفتد الأناشيد بلغة السودان المحكية
وأنشد كلاما مدح فيه الملك بشير وهنا مصر بقدمه فقال :

• ولالك مقهور ولالك مهور : وساكت بطرجيت شاكي

• وكم تلبيا كبير منك يبيض ويكاكي

• سلام عليك يا مصرنا العزيزة

• الليلة مكنا جاكي .

وتفسيرها أن المادح يقول للمدوح : أنك إلى حين خروجك من
بلدك لم يصبك قهر من أحد ما ولا اتترك أحد وإمكانك حذرت من
وقوع ذلك حملتك شهامتك وعزة نفسك على أن تتدفق ضياء وربما
استهدفت له نفسك الكريمة في المستقبل وأنت طالما فورت عدوك في
مبادئ الحرب حتى أنه كان يستغيت من بأسك ويصيح كالدجاجة عندما
تبيض وقد استقبلتك مصر بما يليق لمالك من الإكرام والاحلال ولا
غرو فإنها البلد الأمين العزيز المشهور وإلى ملكها الملقب بالعزيز
ونحطاب منه انضوائها تحت لواء ملكه السعيد .

وقيل أن هذا الكلام فسر للمنفور له محمد علي باشا بالتفسير
الآلف الذكر فسر سرورا عظيما وغمر الوفد ولاسيما رئيسه بصنوف
الحفاوة والتكريم .

وبعد مفاوضات طويلة لب عاهل مصر دعوة الأرمجة وأدى رسالة
الشهامة نحو أبناء الوادي من أهل الجنوب خير أدام . ولما أن كان مبتقى
محمد علي الخيري المحض المجرى من فساد النية والمخزم عن مطامع النفس
كما أثبتته الحوادث قر رأيه على إنقاذ حملة مؤلفة من ٥٤٠٠ رجل من
العساكر إلى السودان عن طريق دنقلة بقيادة ولده الباسل الأمير
إسماعيل باشا وألح عليه بأن لا يأتى أمرا بغير مشاورة رفيقه الملك بشير
ودعقبد فسارت الحملة وما بلغت أرض النوبة حتى نلقاها السكان
بالخضوع والطاعة وعندما بلغت دنقلة الجنوبية أبدت قبيلة الشايقة
مقاومة ظاهرة انتهت بانتصار الجنود المصرية في معركة كورتى ثم تابعت
سيرها حتى بلغت الخرطوم وخضع لها الملك نمر عدو دليل الحملة
الملك بشير .

وقد أكد معاصرو هذه الحوادث من أهل السودان ومن نقل عنهم
أن محمد علي باشا كان يكتب إلى ابنه الأمير ورفيقه الملك بشير كتباً
واحدة وقد أقسم في كتاب منها بأنه لا يفضل أحدهما على الآخر وأنها
سواء عنده في الختان الابوى وختم كتابه بقوله : وهذا حكمى على جميع
رعاياي المخلصين .

وبعد فتح مملكة الهمج بحذاقيرها قام الدفتردار من أسوان بنحو

خمسة آلاف جندي إلى كردفان عن طريق دنقلة وكانت كردفان يومئذ
تابعة للمملكة دارفور فأخضعها بعد إلتصاره على صاحب الشأن عليها
المقدم مسلم في موقعة بارا وبعد أن أخضع إسماعيل فازغلي وأمنتب
له الأمر في سنار شخص إلى مدينة شندى الواقعة شمال الخرطوم ونزل
ضييفا على الملك نمر وكان عدوا للملك بشير كما أسلفنا ويتميز غيظا كلما
رأى فوز عدوه وما وصل إليه من منزلة الرفيعة في الحكومة فلما تقرر
جمع الخراج وطلب الأمير الخراج فتظاهر بالقبول والموافقة ولكنه
أضمر في نفسه السوء وبعد أن جلس معه حتى انتصف الليل وانصرف
الناس إلى مضاجعهم عمد النمر إلى إشعال النار في القش الذي كان قد
جمع حول المنزل فمات إسماعيل اختناقا ومات معه مائة من عبيده وفر النمر
إلى بلاد الحبشة حيث مات بها . أما أهله وذراجه فقد عفى عنهم محمد
على باشا في آخر الأمر فعادوا وسكنوا القضايف — وقد شق على محمد
على باشا أن يعدم رعاياه كما ععدم ولده وحرص الباشا على إنشاء الحكومة
الأبوية الصالحة التي ترعى شئون السودانيين وتمنح بيلاذهم إلى مضاف
الأمم المستحضرة . وآية ذلك تلك الإصلاحات العظيمة التي تمت على
على أيدى حكامدارية النظام في القصر الشقيق . فقد كان السودان قبل
الحكم المصري يتألف من عدة أقاليم مختلفة ومتباينة بعضها مع بعض
تعيش بها قبائل وبدنات متباينة ولا يربط بينها رابط لى منها وملك
أى وملك يحكمها حكما أسدياديا فسكانت القومى والحروب منتشرة في
السودان وتجرى تجرى العادة بين القبائل والعشائر

فمع أن القبائل كانت تتجاور أحيانا فإنها كانت تعيش وكل قبيلة منها في حدود مبرها ، أي في حدود عاداتها التقليدية الموروثة : فهذه قبيلة تمارس الزراعة وأخرى تتجاورها ولكنها لا تزال تجمع الطعام جمعا بما يروق لها من وسائل أخرى فلا تكلف نفسها مشقة الزراعة وهذه قبيلة تحرم بعض الطعام بينما تحله قبيلة أخرى تتجاورها وهكذا . فمع أن الجميع يتجاورون ويختلطون ببعضهم بعضا إلا أنه كان لكل قبيلة مبرها يجعلها تحب أو تكره ما لا يحبه أو يكرهه غيرها .

قامت حكومة محمد علي بالقضاء على هذه النقائص وأقامة حكومة منظمة ربطت إجمالا بين الجميع في وسائل عيشها وطرائق حياتها . ثم قضت على تلك الفوضى الناشئة فأنشأت نظاما إداريا من الطراز الأول على غرار ما كانت عليه مصر حيث قسمت السودان إلى مديريات وجعلت على رأس كل مديرية مديرا وقسمت المديرية إلى مراكز على كل مركز مأمور من أهلها يستمد سلطته من مدير المديرية وقسمت المراكز إلى دلال ، أي قرى على رأس كل حلة شيخ كرئيس رسمي مسئول أمام الحكومة وكان لهذه الأنظمة أثر كبير وجمامت خير شاهد على ما تم من اصلاحات غرضها تقدم أهالي السودان ورفعهم فأنارت في نفوسهم الميل إلى الحياة المستقرة وفضلا عن ذلك فقد ساعدت الحكومة الأهالي على بناء دورهم ، بالجalous ، والطين والطوب والأخشاب بدل القش والغاب . ونمت الزراعة فسكن كل مواطن في مكان لا يبرحه وأصبحوا مزارعين لهم مساكن مستديمة بعد أن كانوا بدو يرحلون

من جهة إلى أخرى وكان يمثل الحكومة في مختلف النواحي شيخ الحلة الذي يرجع إليه في المنازعات والمشاكل المحلية .

وأحضرت الحكومة من مصر إخصائين من العمال لتدريب الأهالي على الزراعة والصناعة ، وأخذت زراعة القطن وحلجه ونسجه إلى دمور تنمو وتزدهر وزرعت النيل والكتان والنيلة وأصبحت مصانع ميكانيكية للنسيج وأحواضا وخوابي للصبغة واستخراج الأصباغ النباتية كما استخرج الألوان المعدنية ، كالخرتة ، أى أكسيد الحديد لتثبيت الأصباغ وهي المعروفة في مصر بالزاج الأخضر وما تزال آثار هذه المصانع باقية إلى الآن في كلا وسنار وكر كوج وشندي والجصارف والبحراوية والكاملين ورفاع وغيرها . وكانت مصر تصدر سنويا ما يقرب من ثلثمائة ألف رطل نيلة للصبغة تصدر للخارج وذلك قبل اكتشاف الانيلين . فسارت البلاد قدما في سبيل الحضارة والتقدم كما أنشأت الحكومة المصرية مدارس ومعاهد للتعليم وكان رفاعة بك أول ناظر للدارس السودانية قبل أن يكون ناظرا أو وزيرا للمعارف المصرية .

ومما يدل على أن الحكم في السودان كان حكما مصرية سودانيا عادلا من البداية باعتبار أن مصر والسودان فطر واحد ضمن نطاق مشترك حتى النهاية ساد فيه الأمن والاطمئنان وكثير الخير وعم الرخاء وتساوى الناس في الحقوق حتى أن العامة صارت تترنم بالقول المأثور وتنغني به مصر ميمون سعيد .

و الترك علمونا الحديث و ليسونا القميص ،

و فناوى يا قاضى السلاوى الى عرب الشجر أصبح تركاوى ،

و صار الحاكم التركى كما كان يسمونه بحوب البلاد من أقصاها إلى
أقصاها بدون حرس بحرسه أو بحميه بل يستقبل أبنا حل ضيفا كريما
بالحفوة والترحاب

• • •

وفى سنة ١٨٥٧ سافر سعيد باشا لزيارة السودان وكانت زيارة
موفقة ومباركة ذلك بأنه أمر بإجراء إصلاحات هامة منها أن تصبح
الخروطوم ومديرية سنار والجزيرة مديرية واحدة على أن تكون كل
مديرية منفصلة عن الأخرى وترجع في أحكامها إلى والى مصر وهذا إلى
جانب تخفيض ضريبة الأتبان الزراعية وضريبة السواقى ومنع الجند
من جمع الضرائب وإناطة ذلك بمشايخ الحلال بعد الحصاد لا قبله وقد
أمر سعيد باشا بعقد مجلس في الخرطوم للنظر في راحة الأهالى من بدو
وحضر يتألف من جميع المديرين وأعيان البلاد ومشايخها هذا إلى أنه
ألغى الضرائب المتأخرة ومن القوانين جمع الضرائب وأمر بإعطاء
و مراكيا ، لكل مزارع يده ليدفع ما جعل عليه من الضرائب على
أقساط فى السنة وكلما دفع قسط قيد ذلك فى السركى الذى يده كما قيد فى
يومية الصراف وجعل من الأهالى مديريين ومأمورين ونظار أقسام
ومعاونين بمرتبات شهرية من الحكومة وأمرهم بلبس الملابس العثمانية ،

مثلهم كمثل الحكام الأتراك لا فرق بينهم ولا تفاوت ثم أصدر عقوا شاملا
عن خلفاء الملك نمر ، الذي أتهم من قبل في قتل الأمير اسماعيل بعد
أن تبين له أن المؤامرة التي حيكت لاغتيال الأمير لم تكن من صنع نمر
وحده بل اشترك في تدبيرها كذلك المماليك الذين غادروا مصر بعد مذابح
القلعة وسافر اللاجئين إلى السودان . فكان من أثر هذه الإصلاحات
أن حسنت الأحوال وازداد اطمئنان الأهالي للحكومة الأيوبية
الجديدة وثقتهم بها وحبهم لها . وكان مما زادهم يقينا في حديثها
عليهم أن حكومة القاهرة ظلت نقطة ساهرة تأخذ بالشدة كل من حدثته
نفسه من الحكام والمأمورين بالخروج عن الطريق المستقيم والدليل
على ذلك أنه ما أن أتهم بمجاز باشا أحد حكامرى السودان في عهد
الحديوى اسماعيل بالظلم والرشوة حتى أمرت حكومة القاهرة بسجنه
في سجن الخراطوم والتحقيق معه فيما نسب إليه واسطة مجلس مشكل
من السودانيين والمصريين ولم تشفع له خدماته النافعة في السودان الشرقي
قبل توليه منصب الحكمدارية ولولا أن عاجله الموت وهو في سجنه
لحوكم وحكم عليه جرمه وفلأنا إذا ثبت إدانته .

وكان تلك الخطوة الحكيمة التي سار عليها الولاة والحديويون
المصريون من أجل تدريب السودانين على الاضطلاع بأعباء الحكومة
في بلادهم أبلغ الأثر في تظافر رؤساء البلاد وزعمائها على تحقيق الإصلاح
المقنود واسترعت هذه السياسة الرشيدة أنظار المعاصرين الأجانب
فسمروها سياسة اشترك العناصر الوطنية في الحكم والإدارة . وهي

السياسة التي نسميها نحن اليوم بسياسة صودنة الوظائف .

فكانت الرتب والنياشين تمنح لعمد البلاد ونظار الأقسام وكبار الموظفين السودانيين من مدنيين وعسكريين أسوة بالمصريين بل وربما زاد عدد حاملها من السودانيين على عددهم من أعيان الفلاحين المصريين نذكر منهم على سبيل المثال :

بشير بك ودعقيد	عبد الجعلين
عبد القادر باشا ود الزين	شيخ مشايخ الخرطوم
إدريس بك ود عدلان	زعيم الفويج وأول معاون للحكمدارية
علي بك البيخيت	ناظر بنى عامر
أحمد بك أبو جن	ناظر الخدمة
محمد بك موسى	ناظر الهدندوى
عبد القادو بك إيله	ناظر الخلائق
محمد بك يس	ناظر كردفان
أحمد بك دفع الله	عين من أعيان كردفان
عوض السكريم باشا أبو سن	ناظر الشكرية
أحمد باشا أبو سن	ناظر نظار الشكرية والنواحي
كيكوم بك (ملك و ملك ، قبيلة الشلك)	
علي بك أبو سن	من الأعيان
حسن بك أم كدوك	ناظر البرنو

عمدة الكباش	علي بك سالم
ناظر الضباينة	محمد بك زايد
ناظر القلابات	صالح بك شنعة
من الأعيان	أد باب بك واد دفع الله
ناظر بني هلبة	بشاري بك واد بكر
	ابراهيم بك الوردتني
	علي بك الخير
من الأعيان وأهل الشورة	محمد بك البلافي
	محمد باشا زيد
	صالح بك خليفة
	قناوي بك ابو عموري
وكيل مديرية بربر	ابراهيم بك الحجاز
الشهير بالجشير	محمد باشا امام

وغيرهم ممن يعدون بالثقات وكان لهؤلاء وأمتا لهم من العمدة والنظار
والزعماء وكبار الضباط والموظفين القول الفصل في شئون بلادهم بل
كان من الضباط والجنود السودانيين من اشترك اشتراكا فعليا في الثورة
العرايية في مصر مما يقطع الشك بأنه لم يكن هناك تفرقة بين المصري
والسوداني ولا بين الأبيض والأسود من سكان وادي النيل ونذكر
كذلك ممن شغلوا الوظائف الادارية من ابناء السودان :-

كمديرين ، على التوالي ، مديرية بحر الغزال

كمديرين ، على التوالي ، مديرية

سنار ثم على مديرية كردفان

مديرا على كردفان

مديرا لبربر

مديرا لهاشودة

مديرا لدارة

كمديرين لمديرية دارفور

كمديرين على التوالي لمديرية الخرطوم

وكيلا لمديرية الخرطوم

وكيلا لمديرية سنار

وكيلا لمديرية بربر

مديرا للجمارك

رئيس مجلس الاستئناف

قاضى لمديرية الخرطوم

لادريس بك ابتر

يوسف باشا الشلالى

سليمان بك الزبير

الشلالى باشا

بساطى بك

إلياس باشا أم بربر

حسين باشا خليفة

الطيب بك عبد الله

محمد بك خالد ذقل

السعيد بك حسين

آدم بك عامر

احمد باشا ابو سنه

محمد بك احمد

أحمد بك جلاب

محمد بك الجزولى

احمد بك مكوار

عمر بك العمرانى

على بك عمارة ابو سن

محمد بك الناب

محمد بك خوجلى

عثمان بك حج حامد
القفيه الشيخ الأمين العزيز
قاضي بخطط الاستواء
شيخا للإسلام
من اهل الشورة

الخليفة واد ارباب
محمد بك عبد الرحمن واد البشير
عبد الرحمن باشا بان النقي
الفضل بك ابراهيم
واعضاء مجلس الاستئناف العالي

ونذكر من الرجال العظام أصحاب السمعة الحميدة والآراء السديدة
العوض بك المهدي (ولقب بالمرضى بعد ظهور محمد أحمد المهدي)
وكان من الرجال العظام ومع أنه كان باشكاتباً لمديرية كسلا إلا أنه كان
صاحب الكلمة النافذة والأمر المطاع في شرق السودان وقد اختاره
المهدي أميناً لبیت المال بعد سقوط الخرطوم فكان بمثابة الرأس المفكرة
واليد المدبرة لشئون السودان مدة المهدي .

بساطي بك المحسى
حسين أفندي الشريف
باشكاتب مديرية الخرطوم
معاون بربر
أحمد أفندي الفسكى
معاون عربان اليدو (وقد اعتقل سنة
١٩١٤ وظل في أسر الانكليز بقصر النيل في القاهرة حتى اعتلت صحته
وهزل جسمه نتيجة الأسر فأعادوه الانكليز إلى أم درمان سنة ١٩١٧
حيث استشهد إلى رحمة الله وكان أحد الفسكى مثالا للرجولة الكاملة
والشجاعة في الحق والكرم الخاتمى والوطنية الصادقة حلوا الحديث لطيف

المعاشرة ذكى الفؤاد سريع اليدية ونذكر إلى جانب كل هؤلاء يا بكر
بك واد السلطان وموسى بك واد يعقوب من أمراء الفصارف والمغازة
أما الرجال العسكريون من أهل السودان الذين بلغوا أعلا الرتب
والدرجات . فكانوا عديدين امتاز منهم نخبة في تاريخ السودان الحديث
أزجوا خدمات جليلة لأوطانهم منهم .

الماظ بك	آدم باشا	فرج الله باشا
وفرج الدين باشا	ويوسف الشلالى باشا	وصالح باشا الملك
والسعيد حسين باشا	وحسن ابراهيم باشا	ومحمد على حسين باشا
وخشم الموس باشا	والنور بك محمد	وسرور بك بهجت
وعبد القادر باشا القجل	وبخيت بك بتراكى	ومحمد بك السيد
وسليم بك مصرى	وعشرات سواهم	

وقصارى القول أن مصر خلقت السودان خلقا جديدا من جميع
النواحي وفضلا عن ذلك فقد ثبت ثبوتا قاطعا لاشك فيه أن تفقأتى
السودان كانت تروبو على إيراداته طول عهد الحكم المصرى وأنه كان
يحتاج إلى مبالغ طائلة لتغطية عجز الميزانية كل سنة . أما إحصاء ما أنفقته
مصر لإحصاء دقيقا من عهد محمد على باشا حتى قيام الثورة المصرية . من
مال ورجال فى سبيل تعمير السودان وتقدمه — فأمر عسير المتعسف وإنما
من الممكن أن يقال إجمالا أن لمصر وحدها يرجع الفضل فى إنشاء جميع
المنشآت الفخمة والمباني الصخمة التى ما يزال معظمها قائما إلى اليوم مثل

المصالح الاميرية والمستشفيات والمساجد والمدارس والثكنات وهذا
عدا مد خطوط السكك الحديدية وتسيير الوابورات البخارية النيلية
والإكثار من المشاريع العمرانية النافعة في دنقلة وكسلا وغيرها وأن
الترع الخضراء التي أنشأها سعيد باشا لتنهض دليلا على عناية الولاة
والخديويين بعمار السودان وتحقيق الرفاهية لأهله . وامتد العمران إلى
أصقاع السودان النائية عندما ضمت الحكومة مديرية بحر الغزال وجعلت
الزبير باشا مديرا عليها وكان في عهد الخديوي اسماعيل أن مدت أول
سكة حديدية عرفها السودان تكلفت مبالغ جسيمة دفعتها مصر عن طيب
خاطر على الرغم مما كانت تعانيه وقتذاك من ضائقة مالية شديدة . ووضع
في عهد الخديوي العظم أضخم مشروع لإنشاء شبكة من الخطوط الحديدية
لربط أطراف السودان من جهة وربط شطرى الوادى الشمالى والجنوبى
بعضهما ببعض من جهة أخرى .

وفضلا عن ذلك فقد أنشأت ترسانة كبيرة لصنع البواخر والمراكب
النيلية وتصايرها فبنت الترسانة هذه الوابرات البخارية الآت اسمائها :
تل حوين - الزبير - التركية - المنصورة - الفاشر - بوردم
الاسماعيلية - عباس - شبن - المسلية - الحسينية - نيازا
محمد على - السلطان - الخديوى - وذلك غير الصنادل والوابورات
الصغيرة الأخرى .

مما تقدم نرى أن حكومة التركيه السابقة ، أو بالأحرى حكومة

الوحدة المشتركة استطاعت أن تسير بالسودان في معارج الرقي والتقدم
مر عليه زمن والسودان يتنقل من طور إلى طور ويخطو إلى الامام من
حالة إلى حالة أفضل منها حتى وصل إلى درجة من السكال يحسد عليها .

وقد يكون من الشاق أن نعرف شيئا عن عاصمة السودان في
السنوات السبعين في القرن الماضي في الوقت الذي بلغ فيه السودان أعلا
مراتب التقدم والرقي في عهد الخديوي اسماعيل وبدأت تتحرك أطماع
الدول في التغلغل في قلب القارة الأفريقية واستعمار هذه الأصقاع البعيدة .
قال محمود طلعت في كتابه (غرائب الزمان في فتح السودان يصف وصوله
إلى الخرطوم عند خروجه من مصر ملتحقا بخدمة الحكومة في القطر
الشقيق في غضون عام سنة ١٨٧٥ :) فالتينا إلى ساحل الخرطوم في
غروب يوم الأحد ٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٢ (١١ أبريل سنة ١٨٧٥
وفي صبحية يوم الاثنين حضر إلينا معاون الضبطية وأرشدنا إلى محل تقانا
إليه متاعنا ثم توجهنا إلى الحسكدارية وسلمنا إفادة المالية فأمرنا أنا ومن
معي بالانتظار حتى يتم إعداد الجبال اللازمة لسفرتنا عليها إلى كردفان ولا
يندب القاري . اللبيب أن طول المسافة قد أدهشني جدا وأن الثلاثة أشهر
التي استوليت على استحقاقها ستنفضي قبل أن أبلغ المركز الذي تعينت
لأجله وفي هذه الحالة شعرت بألم الفراق الحقيقى فاستخرطت في البكاء
وسكنت الدمع مدرارا على فراق حبيبى وأهلى وبعد انصرافنا من الحسكدارية
أخذنا نطوف الخرطوم التي هي عاصمة بلاد السودان ونحيط بحال تجارتها
فإذا هي بلدة حسنة الموقع جميلة المنظر تحيها أمواج البحرين الأزرق
والأبيض غدوا ورواحا ويوجد بها من الجملة الشبالية المشرقة على البحر

الأزرق كثير من البساتين النظرة الشائقة والقصور الباذخة الشاهقة حتى
لقد يعترى القادم على هذا المنظر البهيج حيرة لا يكاد يصدق معها حقيقة
ما ينظره أو يرى أنه قادم على أجل بلد وأعظم تمدنا وحضارة ولا
غرو فإن الخرطوم كانت المحل الأول لأشغال الحكومة المصرية في
أواسط إفريقية ومركز تجارة السودان ومحط رحال أعظم تجارة وعاصمة
بلاد فسيحة الأرجاء واسعة الأطراف كثيرة الخيرات جزيلة البركات
ترابها تير وحصاهادر ويسكن الخرطوم خلق كثير لا يفلون عن مائة
ألف نسمة وبها أيضا كثير من الإفرنج لكن الجنس اليوناني أكثر من
غيره لأن كل البقالين (البدايين) هناك يونانيو النبعة وما بقي منهم
يشتغل بالتجارة غير أن الجنس الانكليزي وإن كان متظاهرا بامتناعه
بالأعجاز كسائر الاجناس إلا أن ذلك لم يكن إلا بصفة اسمية فقط أو
هو وسيلة لبلوغ غاية كامنة في نفوس أبناء التاميز والله أعلم ولم يكن
الغرض من كتابي هذا إلا شرح هذه الغاية كما سيتضح جليا لكل من اطلع
عليه حيث يماط اللثام ويكشف النقاب ويظهر المعنى فتتضح الحقيقة
لأبناء وادي النيل ويقفوا على كنه ما جرد إليهم الإهمال والغفلة مما قضى
على سودانهم بالفوضى وعلى إخوانهم الذين كانوا به لإدارة شئونه
وتنظيم أحواله بالموت وعلى تجارتهم التي كانت رابحة سائدة في تلك البلاد
بالكساد وهي مصائب جنتها أبدينا غلبنا بما استمرونا به شياطين الدسائس
والفتن وأبالسة المكر والخداع ومترى أيها القارئ مفصلات هذه الخللات
في أبوابها بأحلى بيان وأوضح برهان وليرجع الآن إلى ما كنا في صدره

ويوجد في الخرطوم كثير من الشوارع المنتظمة وعلى جانبيها قصور مشيدة
ومنازل جميلة تسر الخاطر وتقر الناظر وهذه الشوارع تسكنس وترش
صباحا وعصرا وهي لا تقل في نظافتها عن شارع محمد علي وشارع درب
الجاميز بمحروسة مصر وبها ثلاث مدارس إحداها للحكومة وهي كبيرة
كاملة المعدات حسنة الترتيب والاثنان الآخران صغيرتان إحداها
للجزويت والأخرى للأقباط أما المكاتب الصغيرة (الكتاتيب) التي يدرس
بها القرآن الشريف فهي مما لا يدخل تحت حصر وبها أيضا كثير من القماوى
منها ما هو على شاطئ النيل الأزرق ومنها ما هو داخل المدينة وجميعها
منتظمة ومبينة تبيضا جميلا وأراضيها مكسوة بألواح الخشب وقد علفت
على حوائطها الصور الجميلة إلى غير ذلك من وسائل الزينة وبها جميع
ما تشتهى الأنفس وتلك الآعين من المأكولات والمشروبات فضلا عن
أنواع الألعاب والملاهي كالبيارد والشطرنج والرد وغيرها مما لا يقل
عن ما في مجتمعات مصر العمومية وبالجملة فالخرطوم مدينة قد توفرت فيها
أسباب المدنية وكملت وسائل العمران وسكانها على جانب عظيم من الرقة
ودمائه الاخلاق والكرم والشجاعة فألقنا بها خمسة وعشرين يوما اخذنا
فيها حظنا من الراحة وأتمنا لوازم السفر ثم انتقلنا من الخرطوم إلى أم درمان
وهي واقعة على الشاطئ الغربي للنيل الأبيض فوجدناها عبارة عن
مكتب نظراف وبعض اماكن خالية من السكان وقد خصصت هذه البقعة
لإقامة الواردين من داخل السودان الغربي والمتريدين عليه وقد خيل لنا
ان جميع عساكر مصر قد نقلت إلى هذه البقعة لكثرة من بها من الجهادية

وعساكر الباشيزوق ما كنا هناك ثلاثة ايام حتى جاءتنا الإبل وقد أيقنا عند رؤيتها اننا هالكون لا محالة لبشاعة منظرها ولانها متناهية في الطول والارتفاع شديدة السواد لم يسبق لنا من قبل رؤية ما يشاكلها وفي يوم الاثنين ٥ ربيع الثاني سنة ٩٢ (١٠ مايو سنة ١٨٧٥) دخلونا تلك الإبل وازمعنا السير .

وهاك اقتباسان من أقوال سلاطين باشا تقلا عن كتابه (السيف والنار في السودان) وسلاطين باشا - كما هو معلوم كان حاكما لدارفور مدة التركية السابقة وأمير المهدية ومفاش عام لحكومة السودان من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩١٤ ويعتبر حجة ومن أعرف الناس بأحوال السودان :

« لم يكن السودان تحت حكم مصر على مثل ما أصف من شدة على ،
« الأوروبيين ولم تكن نحن الغربيين ننصجر من أمثال تلك المظالم فإهي ،
« إلا عشر سنوات منذ وقع السودان في قبضة المهديين حتى شاهدنا ،
« المظالم تترى والعسف يتوالى وإنه لمن الحق أن أصرح بأن السودان ،
« ظل أكثر من سبعين سنة - منذ أدخله محمد علي تحت حكم مصر والمصريين ،
« فكان من ذلك العهد الطويل مفتوحا للجميع ومستعدا لقبول كل جديد ،
« تأتي به المدنية ويدعو إليه العمران - تحت حكم المصريين انشهر ،
« التجار المصريون والأجانب على السواء في مدن السودان الرئيسية وفي ،
« الحرحلوم ذاتها كان للدول الأوروبية العظمى ممثلون محترمون من الجميع ،
« وقد كان الأجانب من جميع الدول الأوروبية متمتعين بحق الدخول إلى ،

• السودان والخروج منه وهم في كل من تبتك الحائنين على أتم ما يشعنون ،
• من أمن وهدوء ، وسلم وإلى جانب ذلك سهلت المواصلات بين السودان ،
• وأبعد الممالك الأوربية بواسطة الرسائل التلغرافية والبريدية المنظمة ،
• إن أعظم ما تتمتع به السودان أثناء الحكم المصري الطويل هو قيام ،
• كل فرد بشعائره الدينية وبفكر العلوم حسبا يوحى إليه ضميره فكانت ،
• ترى مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين في أماكن قريبة يقصدها ،
• أبناءها بمطلق الحرية وفي هدوء وأطمئنان كما كنت ترى مدارس ،
• المسيحيين الأوربيين منتشرة لتعليم العلوم الحديثة لافرق في ذلك بين ،
• الفلسفية منها والدينية والعلمية المحضة . كانت المناطق السودانية ،
• مقطوعة بقبائل مختلفة وكان العداء في كثير من الأحيان شديدا بين ،
• رجال القبائل ولكن حزم الحكومة المصرية أدى إلى نشر السلم بين ،
• السودانيين على وجه عام سواء أكانوا في ذلك راضين أم مرغمين ،
• وسخط سلاطين باشا سخطا عظيما على حكومة المهديّة ثم استطرد
فقال : —

• إن أول ما يتبادر إلى ذهن من يفكر في شئون السودان بعد قيام حكم ،
• المهديين هو مصير المدنية الناشئة الجديدة التي وجدت في سنى حكم ،
• المصريين منذ حكم محمد على فليس من شك في أن تغيير الحال وحلول ،
• الفوضى محل النظام بولدان في العقل شعورا صادقا بالقضاء على كل أثر ،
• ظهر للدينية في السودان قبل المهديين وهذا ما حدث بالفعل فقد اندثرت ،

• معالم المدنية رغم طراوتها وحدثها والسبب الرئيسي في اندثارها هو •
• انتقال الحكم إلى أولئك المستبدن الجاهلة بل أذهب إلى أكثر من •
• ذلك فأقول إن سبب ضياع المدنية راجع إلى ظهور نفوذ أولئك •
• الحمجيين الذين أسسوا على إنقاص الحكومة السودانية المصرية •
• السياسية نظاما جديدا كان إلى حد ما متبعا خطوات النظام الماسي •
• في العرض ولكنه خالاه في الجوهر فبدلا من الحق والعدالة والأخلاق •
• في حكومة العهد المصري نجد الظلم والباطل البربري والتجرد من نظم •
• الأخلاق في حكومة المهديين وأتباعهم . وأنه لمن الواجب على أن أقرر •
• لفقرام غير مدفوع في ذلك بزعة الثأر لنفسى مما قاست من ويلات ولكنى •
• مدفوع بوازع الضمير رغبة في تقرير الحقيقة كلها - بأننى لن أستطيع •
• ذكر أمة ظلت في حياة المدنية أكثر من نصف قرن ثم هبطت إلى •
• الدرك الأسفل من الحمجية غير السودان •

واستطرد سلاطين باشا في ذكر فظائع المهديّة ثم قال :-

• إن الذين يرغبون في دراسة حالة السودان الحاضرة ملزمون قبل •
• أى اعتبار آخر أن يدركوا بأن السودان اليوم ليس هو ذلك السودان •
• فى أيام اسماعيل باشا عندما تجلّت المدنية بواسطة نفوذ الحكومة •
• المصرية فى الوقت الذى كانت فيه البقاع والامم المختلفة المجاورة •
• للنفوذ المصرى أما فى درك الحمجية وأما عابدة اللاوثان حيث لم •
• يستطع الاوربي ضمها النجاة لنفسه إذا اجتاز أحداها علاوة على أن •

• جميع الأوربيين لم يكونوا معروفين ولم تكن حتى دولة واحدة ،
• من القارة الاوربية معروفة لدى الأمم المذكورة كما أن العرب لم يظهروا ،
• في غير القليل النادر - كان السودان إذن ذهرة تلك البقاع والمتميز عن
• جميع ما جاوره بماله من مدينة ونهوض وكان ذلك كله في العهد
• المصري ولكن أقول كما قلت قبلا ، أن الجمعية تطرقت إلى جوانبه ،
• عندما جاء عهد المهديين - كان السودان على مقدار مذكور من المدنية ،
• والنهوض فأصبح منكودا منخبطا في طرفات الجهالة والظلم بعد أن ،
• ألقيت تخاليد الحكم فيه إلى قوة همجية وحشية نكروا التقدم والنظام ،
• وتمجد الكذب والرياء .

ومن أمام ذلك كله لا يكون مباغين إذا قلنا أن السودان عرف
• مدة الحكم المصري عصرا فريدا من عصور العظمة والأزدهار ولم تفصر
• نهضة السودان على التواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فحسب -
• بل شملت هذه النهضة الناحية الفكرية كذلك - فكان عهد التركيه
• السابقة ، فتحا جديدا في تاريخ الفكر السوداني إذ استيقظ الفكر
• السوداني في ذلك العهد من سباته فنهحر من كابوس الخيالات الأولى
• التي تشبه هديان المرضى وأوهام الأطفال ونفض عن نفسه ما كان
• يساوره من فزع وحلع إذا ما مشاهد الطبيعة وأحداثها .

فبفضل انتشار التعليم وإنشاء المدارس ودراسة العلوم الفقهية
• والرياضية وبفضل تعيين الأهلين في وظائف الحكومة الإدارية والكتابية

وبفضل إرسال البعثات للخارج صارت تتسابق الناس إلى دور التعليم والانتساب إلى العلماء والفقهاء . ولم يقف الحال عند هذا الحد بل أنشأت الحكومة دورا للهندسة والتعليم الميكانيكا والكهرباء لسد حاجة الترمانة المار ذكرها ومدارس للتغراف فتحقق للسوداني عن وعي وشعور أنه هو المسيطر على مشاهد الكون كله ، بل عرف أن له عيناً يرى ، وأذناً يسمع ، ويداً يعمل ، وعقلاً يتدبر ، فصار الفكر يتعاون مع اليد في إخراج التحف المعدنية الدقيقة التي تراها اليوم في سوق أم درمان وبفضل وفرة الخيوط والمنسوجات القطنية والخزيرة المحلية حيكت الأثواب المزخرفة بمختلف الألوان في السودان مثل الفرحة ، والسرة ، والبورصة ، والقرميص ، التي يستوردها السودان في الوقت الحاضر من الهند وبنقادة ودرارو والقاهرة بعد أن كانت تصنع محلياً بيد أهالي السودان — وعلى الرغم من هذا السجل الحافل فإنا لم نذكر في الحقيقة حسنات الحكم المصري بأكملها بل تركنا هذا السجل الحافل على ما أخرج من رجال ميامين المنحدر من أصلابهم أبناء الجيل الحاضر دون أن نعطينه ما يستحقه من طلاء خلّاب بل اقتصرنا على ترديد ما كنا نسمعه من أفواه أبنائه أنفسهم وهم رجال عزاز علينا من أهل السودان ما زالوا يذكرّون عن أجدادهم وآبائهم ما عرفه هؤلاء عن ذلك العهد المجيد الغابر وينقلون عنهم حديثاً هو الحق فيما يعتقدونه من كل هذه الأمور .

ومع ذلك فهناك سؤال لا مندوحة عن محاولة الإجابة عنه ، سؤال

جدد خطير ما زال يحول بخواطرنا وتشغل معرفة الحق فيه أذهانتنا جميعا. إذ
انه والحال ما ذكرنا فما الأسباب إذن التي أوجرت الصدور ضد التركيبة
السابقة، وضد حكمها؟ وما برأعت هذا التحول الطارىء؟ وما مبرراته
ومعنى آخر ماذا كانت مسببات تلك الثورة المشنومة التي قضت على هذه
الحضارة والقت بالسودان في احضان الفوضى والدمار؟ إن الاجابة
على هذا السؤال — كما يرى كثيرون — عاصروا الحوادث في الثلث
الآخيرة من القرن الماضى — وكما يعتقد اهل السودان انفسهم الذين
شهدوا حوادث الماضى وما زال ابناؤهم واحفادهم يرددون ما سمعوه
منهم حتى هذا الوقت — نقول ان الاجابة على هذا السؤال تتلخص في
جملة واحدة هي: تدخل الانكليز.

الفصل الثاني

التدخل الانكليزي

« الزوار الاجانب واكتشافهم . تدخل
الانكليز بحجة ابطال الرق خلق للفن
وانارة الشعوب استعمار الانكليز بالادارة »

لعل اكثر ما كتبه الباحثون في تاريخ السودان خلال الجيل
الماضي لم يقصد الى اظهار شيء عن حقيقة ثورة المهدي لان المؤرخين
من ابناء ذلك الجيل كانوا قد شبرا ونشروا بين طائفة من الكتب
والاسفار التي حجب - عن عمد - البواعث الحقيقية للثورة . وابرزت
اسبابا مزيفة ليس الغرض من ذكرها سوى تشويه سمعة المصريين وبإبلة
أفكار السودانيين واقناعهم بالزهد في مصر حتى يطيب لهم طلب
الانفصال - طامعين بخنازين - بحجة الاستقلال تارة ، وتقرير المصير
تارة اخرى حتى يسهل بسحر هذه الاماني ادخال السودان ضمن الدائرة
المرنة ويتم ما تصبو اليه انكاثرا من زمن بعيد . لانا اذا استشهدنا بما
حدث من وقائع في جميع ادوار الحكم المصري ابتداء من وقت افتتاح
السودان الى قيام المهديتين لتبين لنا أن هذا الحكم كان حكما عادلا رشيدا
يساند الى مبدأ ظاهر - هو اعتبار مصر والسودان أطرا واحدا يضمه

سباح واحد تحت سيادة واحدة . وقد يكون ما ذكرناه في الفصل السابق
كافيا لبيان هذه الحقيقة .

والآن دعني أحدثك عن موجبات الثورة التي هي أعجب ما حملته
بظنون الأيام ففوق قلبك واستمع لقصة لم تستوعبها الكتب ولم تسجلها
الاسفار المطولة التي بين أيدينا :

بينما يعيش السودان في يسر ورخاء والامن مستتباً والعدل باسطاً
حنانيه ، والبلاد رائحة في رياض السلام والوثام ، والعناصر المختلفة
والطوائف المتنوعة تتعنى بعمد ميمون سعيد ، إذ حضر في عام ١٨٩٣
صموئيل بيكر زائراً مستكشفاً ، فذهب الى اعالي النيل ومعه زوجته .
فجول الاثنان في تلك الاصفاع النائية وقضيا هناك اربعة اعوام وهما
ينتقلان من جهة الى أخرى مع عرب السودان ، الجلابة ، وعند عودة
صموئيل بيكر الى بلاده الف كتاباً قرر فيه أن السودان أكثر أمناً من
حدائق هيد بارك بعد الظلام : ولكنه حمل حملة قاسية على عرب السودان
لسبب انغماسهم في أعمال النخاسة ، وتجارة الرقيق وحمل على الاسترقاق
بعنف وشدة قائلاً أن السودان غارق في الفساد والرشوة . وإن مصر
تعطى كل العطف على الاسترقاق . وإنه لم يرفع موظفاً من موظفي
الحكومة يتهاون في اندفاعه عن النخاسة على اعتبار أنها من الزم ما لا
يستطيع الاستغناء عنه بحال من الأحوال . وإن ما تبديه مصر من
مظاهر عدم الرضاء عن الاسترقاق إنما هو تكلف مصطنع يراد به خداع
الدول الأوروبية . ثم حمل حملة قوية حادة على أعالي السودان العرب

فوصفهم « بقاصي العبيد وقائلي القبيلة » ثم قال لولا تجارة النيل الأبيض
ما قامت لمدينة الخرطوم قائمة وهذه التجارة قوامها الخطف والقتل :
خطف الرقيق وقتل القبيلة . وإما تجار النيل الأبيض فقربان
يملك أحدهما المال . في حين أن الفريق الآخر مجموعة من الأفارقة
الذين لا يملكون درهما . وكلا الفريقين يسير على طريقة واحدة ، ذلك
بان رجلا لا مال له مثلا يريد تجميع غزوة فيعمد الى اقتراض قدر من
المال بفائدة ١٠٠ ٪ لتنفيذ مشروعه ويتفق مع الدائن على ابقاء الدين
باعطائه من فيل بنصف القيمة التي قد يشتري بها في السوق وما أن
يحصل على المال الذي يلزمه حتى يستأجر عدة مراكب وطائفة من
الرجال العرب ثم يشتري بنادق ومقادير كبيرة من الذخائر والخرز
المصنوع من الزجاج يبضع مئات من الجنيهات ثم يدفع لرجاله بعد
اعداد الخلة اجرا مقدما لمدة خمسة أشهر بواقع تسعة شلنات لكل منهم
شهريا . وبعد أن يمنحهم في الوقت نفسه ستة عشر شلنا في الشهر لاية
مدة تزيد على الخمسة أشهر المذكورة . ثم يستأنف صموئيل بيكر وصفه
فيقول :

« وكان قاصوا العبيد والخاسمون الذين يتوغلون في البلاد ويعملون
فرقا فرقا في خدمة طائفة من التجار - تجار الخرطوم - حتى أن بعض
هؤلاء التجار كان يضم الى خدمته نحو خمسين ألفين من العرب المرتزقة
يقومون بمهام الخطف والاصوصية في اواسط افريقيا . وكان لكل تاجر
منطقة نفوذ يعمل فيها ويرسل اليها جنوده وأعوانه . وتنقسم المنطقة

الى محطات في كل محطة نحو ثلثائة رجل . وعلى هذا النحو كانت
العصابات المسلحة تحتل بقاعا واسعة جدا . وكان رجال تلك العصابات
يعقدون المحادثات مع بعض الأهالي لمهاجمة القرى والقبائل المجاورة
لخطف النساء والاولاد والمواشي والأغنام .

ثم يستمرسل فيقول :

« وليس في الامكان رفع قارة افريقيا الى مستوى يقرب من
المدنية ما لم يقض على النخاسة قضاء لا رحمة فيه ولا هوادة ولا يستطيع
فتح بلاد لنشر الدين المسيحي لأنها موصدة . وليس ثمة ما هو اسهل من
القضاء على النخاسة لو أن الدول المسيحية الاورباوية ارادت ذلك
بصفة جدية فاذا اغضضت الدول عيونها وتهاوتت استمرت اعمال
النخاسة على حالها وظلت القارة السوداء قارة اسلامية متعصبة بل
ومتعطشة لسفك الدماء . »

ثم نجم على اثر نشاط صموئيل بيكر أن نارت ثائرة جمعية مكافحة
الرق في انجلترا وثار الرأي العام الانكليزي واضطرت الحكومة
الانكليزية الى التدخل لدى الخديوي اسماعيل حتى يمحى في تلك الطريق
التي كان الخديوي قد رسمها منذ عام ١٨٦٥ بعد أمعان وتفكير للقضاء
شينا فتدنا على النخاسة في بلاد السودان وظهر اهتمام الانكليز وحماسهم
للقضاء مريعا بصرامة وشدة متزايدة وبشكل عجلة على تجار الرقيق عندما
صار ولي عهد دولتهم (الملك ادوارد السابع فيما بعد) يلح الحاحا

متواصلا ظاهرا على الخديوي حتى بعين السير صموئيل بيكر حاكما مطلقا على
مديرية خط الاستواء فاجاب الخديوي رغبته تطمينا لخواطر الانكليز
واظنها اصدق عزمه في القضاء على الرق والنخاسة فعين صموئيل بيكر
بفرمان لمدة اربعة سنوات مأمورا على خط الاستواء .

ولكن بيكر سرعان ما سلك في مهمته مسلك الحكام الباطشين فأخذ
يخمد الجنود بقودهم — على حد قوله — من نصر إلى نصر ومن موقعة إلى
أخرى فكان شأنه شأن القائد المظفر في ميادين القتال ودعاه تهوره إلى
قيادة حملة صليبية كبيرة لا ضد النخاسين فحسب بل ضد الزنوج الوادعين
من أهل تلك البلاد فكان قوام قوته حوالي سبعة آلاف من الجنود
المشاة والفرسان والمدفعيين . وأما هذه الحملة فقد كلفت مصر ما يقرب من
المليون جنيه بخلاف المرتبات العادية وكان السير صموئيل بيكر يتقاضى
عشرة آلاف جنيه مرتبا سنويا . وهكذا يتبدل حال السير صموئيل
بيكر السائح العادي فيصبح ذلك الحاكم الذي لا ترد له كلمة ولا يحده شيء
من سلطانه ولا يسأل عما يفعل فأخذت بعقله سلطة الفرد وغروره نزق
الاستبداد فامعن في قتل (الجلابة) ومصادرة أرزاقهم ومطاردتهم أينما
وجدوا وحيث حلوا وذاعت أخبار القتل والتعذيب والمطاردة والمصادرة
في أنحاء المناطق القريبة . فكانت تقام المناجات ويشد العويل والبكاء
على من قتلوا من عرب الجلابة واشترك الأهلون في الحزن والأسى لأنهم
جميعا (أولاد عمومة) كانت تربطهم بالجلابة وحدة الغاية والقصد
وخصائص العادات واللغة والدين فضلا عن صلوات الرحم والقرابة وراح

الناس يعتقدون أن الحاديوي في (تعبته نصرانيا الحكم المسلمين) ومن
مسعاه لأبطال الرق قد أصاب الدين في الصميم وزلزل قواعده . وكيف
لا يكون الأمر كذلك وقد اعتاد أهل السودان — منذ الأزل — أن
يعتبروا الرق من صميم الدين وكل محاولة لتغيير ما أبقوه وما أمر به الدين
الحثيف كفر وزندقة وإفراء على الله .

اشدد بأس صموئيل بيكر وأعلن حرباً صليبية لا رحمة فيها ولا
هواده على الجلافة كما قننا وصار يقبض على كل عربي لسبب أو لغير سبب
ويجرده مما يملك من متاع أو تجارة ثم يرسله مكبلاً في السلاسل والاغلال
إلى الخرطوم بينما هو مربوط مع تجار بالترامات فتضيع تجارتهم وترهقه
الديون وأما من كان ينجو من الموت يبادر بمأرجحه خط الاستواء —
خوف العقاب فانه يقبض عليه كذلك في بلده ويرمى به في السجون .
فرقت هذه الفعال أحشاء البلاد كل ممزق وضائق بالناس السبل والمسالك
ولكن هذه السنوات الأربع سرعان ما انقضت بويلاتها وشروها .
وعندما غادر بيكر خط الاستواء تنفس الأهلون الصعداء .

يصف صاحب (السودان المصري والانكليز) صموئيل بيكر فيقول :
« وكان السير صموئيل بيكر رجلاً قاسى القلب غليظ الكبد اشتهر ،
« بسفك الدماء وازهاق الأرواح ويقال أنه قتل يوماً عشرة جنود لذنوب ،
« خفيفة أكبرها أن أحدهم مر بخيمته فمئرت رجله بأحد أطنابها فخرج ،
« إليه وأطلق عليه الرصاص من غدراة وكان إذا سار مع جنود لاكتشاف ،
« جهة كلهم بأن يحملوه على أعناقهم فإذا أبدى أحدهم ضعفاً قتله في »

• الحال فابغضه الجنود وبسبب هذه الفعال هموا بقتله مرارا عديدة فلم
• يصحبه منهم غير ضباطهم المصريين ،
وفي السنوات القليلة التالية استطاع الزبير رحمه أن يجمع قلوب الجلاية
الذين طاردتهم بيكر وآلف منهم جيشا فتح به بحر الغزال ثم ساطنة دارفور
بالاشتراك مع اسماعيل أيوب باشا حاكم دار السودان وقدمهما إلى الخديوي
اسماعيل عربونا على ولاء السودان وإخلاصه .

يبد أن هذه الفئوح الجديدة ما لبثت أن أثارت نائرة الانكيز
ومخطهم فالزموا الخديوي على نحو ما يعتقد أهل السودان بأن
يستدعي الزبير باشا إلى مصر . . . وما أن وصل الزبير إلى القاهرة حتى
قامت رعاية شديدة ضده في أورباروج لها مؤتمر الدول الذي انعقد
وقد اك في (بركسل) لمكافحة الرق ثم جمعية إلغاء الاسترقاق الانكليزية
في لندن ، وترتب على ذلك أن حجز الزبير في مصر وحرم من العودة
إلى السودان وذلك في سنة ١٨٧٤ .

ثم انتهزت انكيزا هذه الفرصة فالحث بضرورة تعيين انكيزي آخر
خلف للسير صموئيل بيكر ويعتقد أهل السودان أن الانكيز قد
اختاروا الملق هذا المنصب شارل جورج غردون بالذات (١) فاجبت

(١) قيل أن ينتدب غردون لخدمته في السودان كان مندوبا بلخدمة في الصين
لخارية زعيم صوفي اسمه (هويك نوسوك) كان يدعى بأن الله أجلسه على كرسى
في السماء وكفه بأن يملأ الأرض عدلا بعد أن مات ظلما وجورا فانتخب الانكيز
غردون لخارية هذا الصوفي فسلك غردون مسلكا وحشيا هداما فحرق المدن بمن
فيها وهي آمنة وأسد البرى . ينتدب المندوب مفردت الحكومة الانكليزية استعانة
من الصين .

رغبتهم وتعين من ثم غردون حاكما عاما على مديرية نخط الاستواء
فبعث هذا التعين الجديد القلق والفرح في القلوب وزاد من ثورة غضب
السودانيين حدوث ذلك التعين في وقت كان الزبير ما يزال فيه مبعدا
عن بلاده في مصر في شبه منفي فزال ذلك من هيبة المصريين . . . أما
غردون فقد جرى بحجة إتمام القضاء على تجارة الرقيق على سنن سلفه من
مصادرة ، وقتل ، ومطاردة وتنكيل (بالجلابة) وكانت فترة من الزمن
لم يقف الدماء فيها برهة واحدة فاستحكم الضيق من جراء أهاليب المظالم
وأقاربن المغارم واستولى اليأس على النفوس وأصبح الأهليون في حالة
برق لها ذل وهوان ، وخسف وحرمان . . . ثم زادت حيرة أهل البلاد
عند ما عين غردون بعد ذلك حاكما عاما على السودان سنة ١٧٧٨ بالحاح
كذلك على نحو ما يعتقد السودانيون من ولي عهد الانكليز فأصبحت البلاد
بصدمة عنيفة وعظمت الكارثة عند ما عزل غردون عددا كبيرا من
الموظفين السودانيين والمصريين واستبدل بهم جماعة من الأوروبيين . فعين
في يولية سنة ١٨٧٨ أي خلال شهر واحد فقط ١٤ موظفا أوروبيا نذكر
منهم : جسي باشا ، سلاطين باشا ، فردريك بك ، ليتون بك ، واراليك
بك ، ومسنجر باشا ، وتشريميد باشا ، ومارنو بك ، وميسون بك .
وميداليه بك . وجونفرت روس بك . وأمين باشا وجوست وسواهم
وقد اشتط هؤلاء في مطاردة الجلابة ومصادرة الرقيق حتى أصبح السودان
كما يقول أهله (عربة بلا عجل أو طير بلا ريش أو قتل بلا مفتاح) لأن

الأرض لا تثبت بنفسها بل لا بد من استخدام الأيدي العاملة في ذلك .
والمواشي لا ترعى بلا راع والرعاة هم الرقيق الذي تصادره الحكومة
وعلى ذلك فقد كثر تفكير الناس في هذه الأوضاع الجديدة واحتمت
غيرتهم على الدين الاسلامي وكان من السهل أن تثبت في اذهانهم فكرة
أن النصاري يتآمرون على الدين الحنيف وأن الساعة باتت قريبة وأن
الاستعداد في سبيل الله هو عين البقاء والخلود .

الباب الثالث

مطاردة الجلابين

قتل سليمان بن الزبير باشا وقتل أعمامه غدوا
بعد التسليم لسي باشا، فرار واسع الزبير إلى الغرب.
نشاط غردون باشا - أعمال غردون العسفية -
دور المرأة في الثورة واستنهاض الرجال للاخذ بالثأر

أما غردون فقد صار لا يجمع ولا يستكين سافر إلى دارفور
ووجد الجلابين من أمثال الجعليين والدناقلة والشابقية منتشرين في أنحاء
دارفور بعد أن فتحها إسماعيل أيوب باشا بمعاونة الزبير ومهد لهم الزبير
رحله سبل العيش بها فممن غردون إلى طردهم من دارفور وأمر مشايخ
عرب الغرب والفور بالقبض عليهم والاخذ بالثأر أو بحريدهم وإرسالهم
بالقوة إلى داره وطويشة في بلاد الفور بعد تاريخ معين وكانت حجته في
ذلك انحيازهم إلى جانب الزبير وخروجهم على طاعة الحكومة وخصوصاً
بعد احتجاز الزبير في مصر فاتهم عرب الغرب والفور هذه الفرصة
وأخذوا ينهبون (الجلابية) بل التجار الوادعين المسلمين الذين عاشوا
بينهم زمناً طويلاً والذين لم يكن لهم صلوات ما بالزبير وأتباعه فأهدرت

دماؤهم وضاعت متاجرهم وسلبت أموالهم . نعم ذاعت أوامر الحاكم العام غردون بين عرب البدو في الغرب وبين رجال القور فحمل هؤلاء حملة شعواء لا رحمة فيها ولا هوادة على (ناس بحر) أي الجلابين فأخذوا منهم تجارهم وكل ما يملكون من نساء وأطفال وصاروا يسوقونهم بالآلاف كالبهائم وهم عراة وبعد أن جردوهم عما يملكون ساقوهم إلى طوبشة وداره وأم شنقة والأبيض واعتبر هذا عقابا عظيما لهم على مساعدتهم الزبير باشا وابنه سليمان وسائر الجلابين .

وكان كثيرون من هؤلاء التجار قد أقاموا بين سكان دارفور سنوات عديدة ولهم زوجات وأولاد وسراى وأملاك واسعة وقعت كلها الآن في قبضة العرب القور وترتب على هذا العمل نتائج بعيدة ذلك أن معظم هؤلاء الجلابين كانوا من عزاز القبائل ولهم أقارب وأصهار وعصبيات في وادي النيل وأصدقاء وأحباب عديدين آلمتهم أوامر غردون وأصبحوا يسخطون عليه وعلى الحكومة .

وعلاوة على ذلك فإن غردون لم يلبث أن جهز تجريده تحت قيادة جمى باشا لمحاربة سليمان بن الزبير رحمه وبعد عدة مواقع كان النصر فيها حليف سليمان فكاتبه والده الزبير باشا وأمره بالتسليم ففعل ولكن جمى مرعان ماغدر به فقتله هو وأعمامه وأنشأت جيش سليمان بين القبائل والعشائر واعتصمت فلولة في الجبال .

وكان يتولى قيادة الجيش الذي تركه الزبير لابنه سليمان عدة رؤساء

فلما أتاهم كتاب الزبير باشا من مصر انقسم الجيش إلى حزبين حزب
مال إلى التسليم ورئيسه سليمان وحزب عارض في ذلك وكان يرأسه راجح
وهو من معاتيق الزبير .

ففي صباح ١٤ يولية سنة ١٨٧٩ أتى سليمان إلى جسي مستلماً ومعه
سبعائة رجل في ثمانية من أقاربه وهم حسن ولد زقل وأبو بكر منصور
وموسى الحاج وأحمد ادريس وإبراهيم وأد حسن وكلهم من قبيلة الجيعاب
والأرباب محمد وأد دياب من قبيلة السعداب وعبد القادر وأد الإمام
وسليمان وأد محمد والقائد برنج الأسود من معاتيق الزبير وفي ثاى يوم
التسليم دعاهم جسي باشا لشرب القهوة وكان قد أوعز إلى بعض الجند
فبعد دخولهم في الخيمة أحاط هؤلاء بالخيمة ثم خرج جسي منها فدخل
بعضهم وأوثقوا سليمان وأقاربه وجعلوهم صفاً واحداً خارج الخيمة ثم
وقفوا خلفهم ورموهم بالرصاص فأنكبوا على وجوههم قتلى ولما علم
قتاوى بك أبو عمورى بمكانهم ذهب إلى هناك فكفتمهم وحفر لهم حفرة
ودفنهم فيها بعد أن ظلوا في العراء مدة طويلة .

أما الرموس الذين لم يسلبوا عدا راجح فهم الرئيس أبو القاسم من
قبيلة المجاذيب وموسى جلى وإدريس سلطان ومحمد فضل الله وكلهم من
قبيلة الجيعاب وعبد البين الأسود من معاتيق الزبير وأخذ كل منهم رجاله
وتفرقوا بين عرب البادية. ولما ذاع بين العرب خبر قتل سليمان وأعمامه
وأن غردون أباح أهدار دماهم قبض هؤلاء عليهم وساقوهم إلى الفاشر

وقد أمر ميسدا اليه بك مدير القاشير بقتلهم رميا بالرصاص عملا بأمر
جسي باشا .

أما رايح فقد أفلت من الموت هو ومن انضم إليه وكانوا نحو ألف
رجل مسلحين بالبنادق قادهم رايح إلى جهة الغرب فأخذوا يجوبون
البلدان إلى أن وصل (برنو) ففتحها رايح وأسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته
(ديكوه) في جنوب بحيرة (تشاد) وقبل وصوله إلى بلاد برنو كان
مهدي السودان محمد أحمد قد قام بشر دعوته وبذل محمد أحمد هو وخليفته من
بعده عبد الله النعاشي كل جهد في استمالة رايح وإرجاعه بجيشه لنصرة
الدين والسكن رايح لم يحب دعوتهم بل أرسل يقول (كيف نحارب أنفسنا
ونحن من رعيته وقد فتحنا بحر الغزال ودارفور من أجله) وأسس رايح
الزير ملكا عظيما واشتهر بالعدل والصرامة وظل ملكه قائما إلى أن
دخلت برنو في نطاق السيطرة الفرنسية فجرد الفرنسيون عليه جيشا
كبيرا فحاربهم رايح وظهر عليهم في عدة مواقع ولكنهم ما لبثوا حتى
جردوا عليه حملة قوامها سبعائة وألف من الجنود المسلحين بالبنادق وخمسمائة
وألف من جنود باقري وأربعة مدافع بقيادة الكونت لامي وكان مع
رايح خمسمائة مقاتل وستمائة فارس وثلاثة مدافع فقط . فلما التقى الجيشان
بالقرب من بحيرة تشاد وذلك في ٢١ أبريل سنة ١٩٠٠ افتتل الفريقان
قتالا شديدا كان النصر فيه حليف الفرنسيين فقتل رايح وتشتت جيشه
وخسر الفرنسيون الكونت لامي ولكنه لم ينفذ عام ١٩٠٠ حتى كان
الفرنسيون قد قتلوا ابن رايح ثم تدخل الانكليز لموازاة الفرنسيين فكان

من نتيجة تدخلهم أن خضعت برنو لسلطانهم فأعادوا عائلة الشيخ محمد
الأمين الكافى إلى الحكم واحتلوا البلاد بدعوى حماية الأسرة الحاكمة
وعكدا رويداً رويداً دخلت البلاد ضمن الممتلكات البريطانية وصارت
لأحدى مديريات مستعمراتهم الكبيرة فى تلك الجهات نيجريا نسبة إلى
نهر النيجر العظيم .

ولهذه المناسبة نقول أن البرنو أو البرنوج ، أقصى مديريات
شمال نيجريا من جهة الشمال الشرقى وجنوب بحيرة تشاد ، يقطنها خليط
من البرنو والسكانجو والعرب والفلاحة . والبرنو هم السكان الأصليون
ويقال أنهم من عرب جهينة الذين نزحوا من مصر مدة الفاطميين
واستوطنوها بعد أن غلبوا أهلها عليها وأسسوا ملكة واسعة جعلوا
عاصمتها ، قزرقوة ، وكان بين سلاطين البرنو وملوك مصر علاقات
ودية وصلات حبية متينة أدى وجودها إلى تعليم عدد كبير من البرنو
المهاجرين فى الجامع الأزهر الشريف حيث خصص لهم رواق مثل
السنارية وكان لرجوع أولئك المتعلمين لبلادهم أثر صالح فى نشر العلم
وقواعد الدين الإسلامى بين مواطنيهم فكان نور العلم دائم اليزوغ فى
تلك البلاد النائية عن مركز الإسلام . وفى أوائل القرن التاسع عشر
الميلادى استلم مقاليد الحكم رجل أزهرى من الكافجو يسمى الشيخ
محمد الكافى مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية وكان يلقب « بالشيخ » لا
السلطان وعندما دخلت هذه البلاد فى يد الإنجليز فى بداية القرن الحالى

انتقلت السلطة الفعلية إلى يد المقيم الانجليزي ويتكلم البرنو لغة خاصة
بهم أما اللغة العربية فلهة الدين .

وبعد مقتل سليمان الزبير وتشيت جيشه كما مر ثار هارون الرشيد
ابن السلطان محمد الفضل في دارفور غير أن غردون لم يابس أن قتله
بعد عدة مواقع وانضمت جيوشه إلى خليفة السلطان دودبنجة في جبل
مره وفضلا عن ذلك فقد ثار الصباحي في كردفان ولكنه لم يلبث أن
قتل هو الآخر وتشيت جيشه ولجأت قلوبه إلى جبال النوبة بنشدون
السلامة في الإقامة بين أهل الجبال . ونحن إذا اردنا أن نتحدث عن
المآسي العديدة التي ارتكبتها غردون مدة حكمه الطويل سواء كما مور لمديرية
خط الاستواء أو كحكم دار عموم السودان ونصف بين عامي سنة ١٨٧٤ ،
سنة ١٨٧٩ وما ذاقه أهالي السودان من صنوف الفزع والهلح والذل
والمهانة على يده لأعوزنا الزمن لنقص كل هذه الحقائق ولضاق بهذا
الحديث مجلد ضخيم ومع ذلك فلا مندوحة من أن نذكر طرفا من هذه
المآسي التي لا تزال آثارها عالقة في أذهان أهل السودان وينتقلها
هؤلاء جيلا بعد جيل ، بل وبقرها التاريخ ، في مواضع كثيرة .

من ذلك على وجه الخصوص بأنه ما علم النساء والعائلات من أمرة
الزبير بمقتل سليمان وأعمامه غدرا بعد التسليم حتى هيمن الرعب على
نفوسهن واستبدت بهن الهواجس والأوهام وغاصت قلوبهن في أرجلهن
وتساءلن فيما بين أنفسهن عن المصير وهن يعلمن أنهن لو بقين حيث كن

لغثك بين الزنوج . لاسيما عساكر جسي باشا . وكانت الافكار والصور
والتحيلات وذاكرات الماضي - ماضى العزة والسيادة والحاضر والمستقبل
حاضر المدلة والهوان . ومستقبل الشكوك والخاوف ، تكتظ في أذهانهم
ويدفع بعضها بعضا فلا يزيدن التفكير في ذلك كله إلا حيرة على حيرتهن
فيقفن مشدوهات مقهورات بالحمة ينتظرن من السماء إلهاما يرشدن إلى سبيل
الخلاص والسلامة وقد أدركت حقيقة الموقف وما يكتنفه من خطورة
جسيمة ، العازة بنت إدريس ، وكانت العازة هذه ، فسكائية الجيش أى
، غناية ، وهى امرأة فصيحة اللسان تقول الشعر باللغة المحكية فخطبت
في النسوة المشدوهات : ، يا بنات هوى ، لقد غربت حياة رجالنا في
غياهب العدم ، ولكن أرواحهم تنادىكم : الفرعة : الفرعة : هيا :
رجالنا غربوا وراحوا بعيد وبلا رجعة : رجالنا تركونا بلا وصية لأن
العدو الخائن قتلهم غدرا ونحن هنا بلا انتظار : هيا أفرعن من هذا
المسكان : اربطن أصلابكن وكرين (أى احزمين) هدمكن واشددن
رجالكن فليس في الوقت متسع : لا تدعن الكلاب تمتص ، العنكب
(أى قصب السكر) ولا تدعن زهور ، الشاف ، (الفتنة) تسقط في
الوحل وتطأها البهائم فاذا أدرككن العبيد أفرشن شعوركن واستعصمت
عليكن اللعنة الأبدية :

نحن نبادر بالفرار من الوقوع في أيدي الأعداء ، ونجتهد في
الإفلات ونلجأ إلى كل حيلة . قد تكفل لنا الحرب أهيا : هيا : ادرعوا
السيوف والحراب كالرجال لا تدعوا الدمع يفيض وينهمر الآن :

الحرب نصف السلامة والعيب على من توافى ، وماهى إلا دقائق معلومات
حتى هجرت النسوة امكثتهن وصرن يهمن على وجوههن يقطعن الضيافي
ويخترقن الغابات الكثيفة ، ويسلكن المفاوز والوديان الخفية سائرات
على غير هدى حتى حطن بمدينة كردقان بعد أن اخترقن دار النوبة
ودار حمر ودار المسيرية والحوازمة وقد صرن في أرض مفرقة قحلاء
حتى صرن في حالة ملتها التعاسة وتحلت عليهن مظاهر الكآبة وآيات
المترية وكذا صادفن « فريفا » (أى منزله) من فرقان العرب نزلن به
وهن بصرخن صراخ الفرع والنجدة ، صراخ الطنيط ، (المستجير)
ورامدهن العازة بنت إدريس المار ذكرها فكانت تخاطب رئيس القبيلة
أو الفريق قائلة :

• يا عمار الوادى وسادة البوادرى •
• يا مجيرى الطنيط من بطش الاعادى •
• يا سادة الامة وقادة الانمة •
• يا حماة الدار ومتاوين العار •
• يا موئل الخائفين وحماة المستضعفين •
• بحرمة داركم وموقد ناركم أن تأوونا •
• نحن داخلون عليكم من السيف والخياف •
• نحن نستجافكم بالعرض وحرمة الدين وغيرته •
• نحن طالبات منكم الحماية من عدو ديننا وعدوكم •

نحن بنات عرب عزاز وبنات قبائلكم فينا
• الأمهات والحالات والعلمات والأخوات وأنتم عرب ،
• نحمسون الزمار وتأوون الطريد ونطعمون
• الشريد من الرجال . قد جئناكم طائبات ،
• بعد أن قتل رجالنا وصرن أيامي - نحمل ،
• اليتامى . فارفعوا عنا صدمات الزمان وعوادي ،
• الأيام . لقد ترك رجالنا الدنيا للظلام ولنا وأنتم ،
• يأسادة الدنيا وحكامها واقبالها . لا تسخروا من ،
• هؤلاء الضعاف وأهل النيل والأرياف . أنتم ،
• كالشبع الذي يذهب بالجوع . وكالسماء الذي ،
• يغطي العرى . وكالسماء التي تطلع منها الشمس فتدفي ،
• البردان . كالنار التي تنضج الطعام . وكالسماء ،
• الذي يطفى العطش . والدواء الذي يشفي المرضى ،
• ويحيي الموتي قد جئناكم طائبات لتأوونا ونخففوا ،
• عنا ما نحن فيه من نكس وشقاء .

فأورد الشيخ قائلا :

• أبشرون ستكون في أعز جوار وامشع ،
• زمار . لقد عطفتم أحشائي عليكم بعد ،
• ما علمت أمركن . فاسترحن على مهاد ،
• الراحة والأمان واملان قلوبكن بالطمأن ،

« هذا هو المأمول فيك يا عشاى ،
« بارك الله فيك وفك تعاسير دنياك ،
« ويسر لك سبيل مقصودك ،

مضى محدثنا بقلب ناظريه في وجوهنا المثلهفة إلى سماع حديثه وقد
لاحت على اساريره علائم الشجن والحزن ، ولعله كان يطربه ما يحسه من
شوقنا وتلفنا إلى ارسترساله في هذا الحديث الممتع . غير أنه لم يطل
السمت فقد تهد ورفع رأسه وقال : ما أظنكم أيها الحبان رأيتم مارأيت
على أن تخيلتي لم تخلفي هذه الصور ولم تفسجها من خيال كاذب . ولكنها
وليدته مشاهداتي الشخصية فقد كان والذي ضمن رجال سليمان الزبير
الذين قتلهم (جسى) باشا غدرا بامر غردون وكنت . أنا الشايب الآن
في سن الوعي والمراهقة وكنت اصحب أمي في هذه السرية التي ، اقص
عليكم الآن حوادثها . أيام ان كنا ، وكان لنا جاء وكنا حكام وأيام
ان كان لنا شأن وعز وصوله . هي أيام مضت وانقضت بخيرها وشرها .
ولكننا مهما تغافلنا عن الماضي فلم ننس سياسته المدوان التي إذاقتنا مر
العذاب ، ونكالت بالآباء وتمرت لهم فكثير من رجائنا الذين كلهم
المجد محومات سيرتهم تحولا مؤلما . في حين الشمس غيرهم لانفسهم
ماوى في خارج السودان يلجأون إليه امثال رابع الزبير وأعوانه وبقوا
به بغيرهم الاسى وقد جر عليهم الدهر ثوب الذنبان ... ثم تهد وقال :

• اذا انطلق لسان المحزون بالشكوى فقد زال نصف دأبه ، واذا لقيت
شكواه قلبا واعيا انتقلت إليه ... وها انا اقص عليكم نصيب هؤلاء
النسوة من الجهاد — في شان الله — وما اقته من مناحات ، وما تعبته
ذا كرتى من اناشيد الاسى والشجن . غير انى اسارع فاقول لكم أنه كان
بين هذه (السرية) نساء جميلات غاية الجمال . صكن ينتصبن كاشفات
الرؤس فكانت تتدلى شعورهن المخلولة الفاحمة فوق صدورهن الفاتية كأنهن
تحف نادره بين نساء البوادي . أو كأنهن تمائيل حية من آيات الفن
الفرعونى صاغتها آلهة المصريين على ما تشتهى وتشاء ذات قامات فارعة
واجسام بضة ناعمة قبية . وعيون (جعليه) عميقة ساحرة . فى نظراتها
فتنة واغرام . وكانت هذه العيون الساعمة الدامعة ترسل نظرات ساحرة
تفيض اشفاقا ورحمة فدمانت الابتسامات على تلك الشفاة الغضة الخضراء
التي تستهوى النظر وتأخذ بمجاميع القلوب والتي كانت يوما ما تبسم فى مرج
الشباب ورونق الحياة ...

كانت الصبية تقنصب فينصت الناس كأن على رؤسهم الطير وتعدد
مناقب ولها بصوت مؤثر حنون . تبدو فى نبرات رنات الشجر والشجن
المثيرة . فتنادى الليل وتناجيه . وتشكو له وتشكبه . وتخطبه فى مثل هذه
الركة المشجية . النعمة الباكية . وكان هؤلاء النسوة يقمن المناحات أينما
حلن فترى الساديات منهن ينشدن المراثى الرقيقة يثنن لها أوتار القلوب
بالحان كثيبة مؤلفة فهذه امرأة تناجى ابنها بالسكاء وزدق الدموع
وتتحدث إليه بكلام مؤثر فتبكي العيون وتدمى القلوب وتعقبها امرأة

أخرى تناجى أخاها كأنه ينطق وهو جامد اللسان بعيد عن المكان
فتقول :

« قم يا محمد شدوا لك العاني »

« قم يا محمد اعدل الخاطي »

« قم وقل يا فاطمة هاني »

وتلك امرأة تودع ابنها بكلام مؤلم فتحدث إلى الأحجار ونخاطب
الأشجار والنجوم الساهرة وظلام الليل وكواكب السماء ثم تعطف
وتقول :

« يا عمار الوادي وديعتي عندكم احسرها بالطافكم : إن روح ابني »

« ترفرف بأجنحتها تطالبكم بحق الدم . أما جسمه فراقده رقدته الأبد »

« مضطجع في لحده . إن نسمة الصبح العاطرة واغرودة الطير الساحرة »

« وصيحة الديك الصادحة وصدى النحاس الداوية . لن يحرك لهم ساكناء »

« ولن يبعثهم من مرقدتهم الهادي . لقد قتلوا غدرا ولم تعد أسماؤهم تزلزلا »

« وفي صفحة الخلود ولم تعد ألوية الفخر تخفق فوق رؤسهم حتى تبقى ذكراهم »

« نبراسا يهتدى به المدججون في غياهب الزمن السحيق . ان ترى الزوجة »

« مهلة للقاء زوجها حين أوبته . ولن يمضي الأطفال هاتفين يزفون بشري »

« قدوم أبيهم أو متسلقين ركبته . أو متخاطفين قبلته ... لقد قتلوا غدرا »

« بعد التسليم . إن الجسد لنقى شوق إلى صدر حنون يركن إليه والعين »

« الذابلة لنى لطفة إلى بعض الدموع المنسكبة والآن ليصمت كل همزة »

« لمرة ليستمع إلى صوتهم وهم يهتفون من أعماق القبور قائلين :

« نحن قتلنا عددا والعدو بأهل العذر وفاء عند الله . نحن نستجلفكم .

« بحق السنة ألا ندعوا الدم يصرخ إلى السماء صراخا ألما في الليالي ،

المظلمة لئلا تنزل بكم الضربات الهائلة التي تأمر بها شريعة الانتقام . » (١)

وكان النساء يلبسن لباس الحرب والتزال ويتدرعن عدة الحرب

ويقبضن السيوف كالرجال المحاربين وتتسابق البنات الحسان كاشفات

رفوسهن وتمرزن وتنجزن وتعرضن كأهبن فرسان في ساحة الوغى يصرخن

بأعلى أصواتهن :

« نحن بعد أن أباد العدو رجالنا اليواصل .

« لانرضى بالاستكانة ولا تقبل المهانة والضعفة .

« ولا رضى أن يظلم علينا . فضلة السيف . لقد .

« تركنا الخباء والحجرة . وفضلنا الجهاد والمجزة .

« نحن ناس الحرب . نحن أهل الطعن والضرب .

« نحن لا نموت على الفراش كما يموت الجبناء الأذلاء .

« نحن استعضنا أنفسنا بالرجال . نحمل الذمار . »

(١) يعتقد أهل الليادية أن دم المقتول يصرخ دائما في الليالي الدامسة ويطلب النار . فإذا صدر الدم اضطرب الرب كلهم واستعمرت نفوسهم غضبا حيث يزعمون أن الانسان إذا قتل ولم يؤخذ بأثره يخرج من رأسه طير فلا يزال يصيح ويصرخ إلى أنه يؤخذ بأثره وفقا للبدا الجارية بحرى السنة بالعين بالعين . والسن بالنسب .

« وتأخذ بالثار . وتغسل العار — بأعمار الوادى »
 « بأهل البوادى أوقدوا الشيران واطرقوا »
 « الخراب وحموا السيوف . . . لا تتوانوا . . . »
 « لا تجعلوا الساق يستقر على القدم فيوم الشكر »
 « قريب . . . قريب : قرب الذقن للشارب وقريب »
 « قرب الكف للغارب . »

وكانت العازة تقف بين العريان وتكشف عن رأسها تطلب النجدة
 نارة ومعددة مآثر الزبير وابنه سليمان نارة أخرى فتقول :

« ولد حدياي كريم ما كرم بلا بصره (١) »
 « كريم يرحم العدمان الى إيدى يابسه (٢) »
 « كريم يعطى الى مخلوفته كابسه (٣) »
 « كريم يدخل العوجه الفرسانه لابسه (٤) »
 « ما تمام ماماسكك الحرص فى باله (٥) »
 « ما كذاب ما يسمع حداثث قالوا (٦) »
 « يتسم بالضحك وقت العديم يصفاه له (٧) »

(١) كان الزبير يودف لحدياي الفارس لتتصرم والتقصود أن سليمان كان
 كريما من حدى لا كرم نطاهر (٢) يحول العطاء لعدم (٣) كريم على من
 ذكره العدم (٤) يحود بنفسه ولا يحجم على الدخول فى معصية الحرب (٥) لا
 يعرف النعمة ولا أستمع الى أحاديثها (٦) لا يكذب ولا يستمع الى الكذاب
 (٧) يخفف من ويلات المكروب بالضحك

- « ايده مساعداه للعظام التي يستتر حاله (١)
 « كم ياسليان شدواك على منبور (٢)
 « ويدك يا ابو نفل تفعل قدر ما تدور (٣)
 « كم كمل عيالا تضبط الكبسور
 « كم كمل عيال الميرى والمأمور
 « كم كمل عيالا تأمر تقول حذدور (٤)
 « كم كمل عيالا فوق الحراية تدور
 « كم كمل عيالا غدى الحده وصقور (٥)
 « كم كمل عيالا حنت مصر واستنبول (٦)
 ثم تعود فتثنى على سليمان الزبير قائلة : —
 « أوريك تغايلهم الى كلم باعرفهم (٧)
 « الخوف والبخل بالسكة ما يصادفهم
 « كل مرجوب يشلو فوق اكنافهم (٨)
 « والغريب فرد يوم كلم بألفهم
 « ان خطر او مستقيم هو ابن ملوك
 « واد الزبير الصافي ما مشروك
 « غير سايجان كل الأمل يوك يوك (٩)

(١) ويده تساعد على جزل العظام (٢) جياو الحبل (٣) الاصيل واليد
 العلاقة تحيد النشان (٤) التذات (٥) أى أنه أشيع الطيور بالمعوم البشرية (٦)
 ايد شبابا أيفظ مصر واستنبول (٧) أى خصائصهم الى امتازوا بها (٨) كل من
 اخفى عليه الدهر (٩) كفة تركية معناها (نيش) او معدوم

املاً اليد صحيح وقت الحديث شك شك (١)

وكان لصراخ أولئك النسوة اثر فعال في اثاره العواطف وتحريك
كواهن الحقد في قلوب العرب ضد الحكومه وبما يحكى وتنقله الالسنه
أن الامام محمد احمد سمع ذات مرة امرأة تبكى وتنوح على زوجها وعائل
أولادها فتأثر وبكى بكاء حاراً أبكى من كان حاضراً معه وقد طالبت من
محدثي الشيعه العرض ان يعيد على مناجاة هذه المرأة حتى يتسنى لنا اثبات
شيء منه لتصوير ذلك (الجو التاريخي) الذي كان يحيط بالناس في تلك
الايام الخوالي فقال : —

• حالى حال العدو المسكين .

• حالى حال الابهى لتكينه للسكين .

• حالى حال الملسوع سرت فيه سموم الثعابين .

• حالى حال أم الربيه لمن جناها بين (٢) .

وبما يؤيد ذلك فان مرأتى هذه النساء مازالت حيه تدور في الافواه
وترن في الاسماع حتى اليوم في غناء المكروب وعزاء المحزون .

ولما رأى عرب كردقان مادمهم من مصائب ومانوالى عليهم من
نكبات ورأوا مصير سلمان الزبير وهارون الرشيدى والصباحى وما أصاب
نساءهم ورجالهم من تعاسه تملكهم السأم من الحياة وشعروا بالنقص في

(١) كلمة تركية معناها (وافر)

(٢) ومعنى ذلك أن حال هذه المرأة كحال مدم فقد كل رجاء
وأصبح كحيدان عند والدته وعلى رقبته سكين أو كلسوع مرى في جسده الدم
أو كحال أم ظهر على ابتها الحبل ومن لا تزال عذراء .

كياشهم وبالفراخ في قلوبهم وعلى ذلك فانه ما أعلن الامام محمد احمد النور
حتى رموا بأنفسهم في أحضانها فكانت عرب كردفان أول من لبى النداء
دفاعا عن كيانهم وكيان رجوليتهم مفضلين الموت في سبيل الله على الموت
أذلاء مهانين فكانوا اشبه بنهر طغى وفاض مأوء من فوق الجسور فأغرق
الحقول وخرب المزارع ولم يعق اندفاعه عائق أو كالمصروع أصابه
جنه فهبوا للجهاد بغية الخلاص بما هم فيه من يؤس وشقاء وتعبه بالغة
وصار شعارهم ذلك القول الذي رددت الوديان اصداؤه في طول البلاد
وعرضها « في شأن الله » : « في شأن الله » : « في شأن الله »

• • •

وأمعانا في إثارة شعور الاهلين انشأت الادارة مدة حكم عردون
مصلحه أطلقوا عليها اسم (مصلحه الرقيق) وعين لها عردون من يدعى
بكلر باشا مديرا فقام بكلر المذكور لتنظيم هذه المصلحة واستخدم معاونين
ومأمورين وجند الهجانة والمشاة ثم أنشأ المصلحة فروعا في أنحاء
السودان فانتهر الأرقاء من نساء ورجال هذه الفرصة وصاروا يتركون
أسيادهم ويفدون أفواجا على هذه المصلحة فتعطيهم ثأرا كحرية يحتم
الحكومة . وأمعانا في النجدي والنكاية عمدت الادارة إلى تشجيع الرقيق
واغرائه على ترك أسيادهم وصارت تقدم لهم الغذاء والكساء وتصرف
لهم (الجراية) من أموال الحكومة فوقف دولاب العمل (في البيت
والغيبط) على حد قول السودانيين ووقفت النساء العربيات مشدوهات

لا نهن لم يمارسن (طحين الأذرة على المرحاكة حتى يصير عجينة) ولم يمارسن (عواصة هذه العجينة على الدوكة حتى تصير كسره) أى خبزا يؤكل ناهيك بالخدمة المنزلية الضرورية وورود الماء وخدمة (الضيغان) وغسل الملابس . وكان من عادة المرأة العربية أنها لا تتزوج بدون أمه أى جارية تقوم على خدمتها فى حياتها الزوجية عملا بالقول المأثور (العربية تحمل وتلد والامه تطحن وترد) حتى أن عدد الجوارى والعبيد الذى يقدمه الزوج كان يثبت فى عقد الزواج ضمن الصداق فضلا عن ذلك فقد أنشأت الحكومة - امعانا فى الهاب الخواطر مكاتب لاعطاء (نذاكر ترخيصات) دعاره للجوارى الحسان حتى يمارسن المهنة تحت حماية الحكومة ثم خصصت لهن أماكن أطلق عليها اسم (كرخانة الحكومة) .

وخصصت الحكومة أيضا (اندايات) لصنع الخمر وشربها وكان غرض حكومة غردون على ما يبدو ان تستقى ماتريده من معلومات سرية بخصوص الرقيق وخلافه من هذه الأماكن الدنسة كما أثبتته سلاطين باشا فى كتابه (السيف والدار) فتفتشت القهشام وكثير المنكر وعمت البلوى وعظم الخطب وانتشر الفساد .

واكتنظت مدن السودان أمثال الخرطوم والأبيض وسنار وسواكن وكسلا بآلاف مؤلفة من السفلة والرعاع وآلاف مؤلفة من (الشطار) الذين لا يملكون من أسباب العيش غير أدوات الجريمة وأصبح المشتغلون

في رعى الماشية وقلاحة الأرض من رواد اللهب والحلابة ولما كانوا قد نفضوا عنهم ثوب الحشمة ولا يعرفون للشرف والظهر والعفاف معنى فقد انطلقوا مع (الفرخات) أي ، الجوارى الصغار ، ولها مع اللاهين يحدوهم إلى ذلك سعار إلى اللذة لم تبخل عليهم (الحرية الطائشة) اطفاء بما كانت تقدمه لهم من صنوف اللذة التي تشتهى نفوسهم فانغمسوا فيها انغماس الذباب في العسل وكان يقوم على الخدمة في الاندابات نفر من الجوارى اللواتي يحسن مع بيع الخمر بيع الصبا به والغزل الرخيص وصحب ذلك كله الشذوذ الجنسى والميل المنحرف وشاع حب الغلمان وقد يكون هذا الشذوذ موجودا في كل مكان وزمان ولكن الجهر به وعدم التستر منه حتى أن صاحبه لا يرى فيه عاراً فذلك حال ما كان يطبقها أحد بل لقد طغى الشذوذ لدرجة أن صارت الجارية لا تعد جميلة إلا بالقدر الذي يشبه جمالها فيه جمال الغلام .

وقد أشار سلاطين باشا في كتابه (السيف والنار) إلى نفسى هذه الرذيلة أيام المهديّة وقد تفاضى عنها الخليفة وسمى أصحابها (بالملاوطة) ولما كانت الجارية كما هو معلوم تقوم بما لا تقوم به (الحرة) فلا بد إذن من صفات وخلال تعلو بها كفتها وتحجب الناس في اقتنائها وهي صفات وخلال ترجع بعضها إلى نظر السفهاء كصفة الجارية على الصفات وخلال التي تتجنى بها الحرة . فامعن الجوارى في حياة اللهب والفجور . ومع الخمر والجوارى جاء الغناء الذي أحكمته الصنعة البارعة . ونحن نقف على العبارة الآتية من مقال نشر بجريدة الأهرام سنة ١٨٩٦ جاء فيه : - أن المرحوم

الشيخ على عبد الله الذي كان في ذلك الحين شيخ السجادة القادرية في
الخرطوم كتب عريضة إلى الحكمدار غردون يقول فيها أن له زاوية
للعبادة تكتنفها منازل جملة للعاهرات الواقي لا يقتصرن على السلوك
القيح بل يقلقن أيضا راحة العباد بما يحدثنه من الجلبه بالرقص والنقر
على الدفوف والصرب على آلات الطرب : فأجاب غردون على عريضته
هذه جوابا لا يلبق بالأديب أن يدنس قلبه بنفله ساخ الله كاتبه .

وقد حدثني رجل عاصر هذه الحوادث فقال كان الجوارى يخرجن
إلى الشوارع يغنين الأغاني الخليعة في عبارات عارية مفضوحة منها على
سبيل الكيد للنساء الأحرار ربات الخدور .

• كندروك . كندروك ما يناخذ العزبان

• تعزل في الثوب رجالة النسوان

• نطلع فوق قلوبهن ونوقد التيران

• ونسقيهن مراير حنضل الجيزان

وكانت الجارية تعرض للشبان في الطريق وهي تغني بأقبح الأغاني
وبدون خجل أو تسهر تسد الدرب على الشاب تحاوره وتداوره وهي
تقول :

• سموني حركة أم حريكة

• أمي وأبوي دفعوني إليك

• تدفني يا واد أمي تدفني ؟!!

جاء في كتاب السودان المصري والإنكليز الحادثة الآتية نوردوها
هنا لدلالاتها المثيرة : —

وعما كان يحدثه الإنكليز في السودان على يد سياحتهم أن أحد هؤلاء
السياح المدعو (المستر شويز) الذي سكن السودان وجال في أنحائه نحو
خمس عشرة سنة ليضرم فيها نيران الشقاق كان ذات سنة مسافراً في
شواطئ البحر الأبيض في جنوبي مركز الكوة فنزل عند قبيلة رحالة اسمها
(قبيلة سليم) وأقام بمنزل شيخها ضيفاً كريماً فكان رجالها يصحبونه إلى
الغابات ليستطلع ما يريد ويرسم ما يريد وكان من عادات القبائل الرحل
أنهم كلما نزلوا في الصحراء يقيمون مسجداً وذلك بأن يجمعوا قليلاً من
التراب على شكل دائرة مربعة فأراد ذلك الضيف الكريم أن
ينقل رسم هذا المسجد في دفتر سياحته فرافقه إلى المسجد كل من في
الحجى ليشاهدوا رسم الفوتوغرافيا وكان ذلك وقت آذان العصر فعندما
سمع المستر شويز المؤذن أخذ يحذف ويتفوه بكلمات يمننا إجلال مقام
الدين من كتابتها فقام عليه الأهالي وبعضهم أراد قتله وقد ناله جراح
ولكن شيخ القبيلة تدارك الأمر بكل صعوبة وحمى ضيفه بعد أن قتل
أحد خدامه ورفقاته الإنكليز وتمكن من تهريبه ليلاً :

ولدى وصوله إلى مركز الكوة أرسل إلى الحاكم غردون برسالة
يخبره فيها بما جرى له فقامت قيادة الإنكليز على قبيلة سليم ونحرت
البواخر عباب النيل حاملة أربعة آلاف جندي لقطع دابر تلك القبيلة
الضعيفة التي أهانت الشرف البريطاني على حد قولهم فحاصر هذا الجيش قبيلة

سلم بالمندافع والتخيول تحت قيادة المستر شوهر وذلك قبيل الفجر وأمطر عليها نارا حامية فأهلكها على بسكرة أبيها ولم ينج منها إلا رجلان وامرأة اختبأوا تحت القتلى الذين بلغ عددهم ١٠ آلاف ذهبت ارواحهم ضحية لإهانة النفوذ الإنكليزي المشنوم .

وعلى أثر هذه الحادثة أصبح البطلان والعمالة من السودانيين يعتقدون بما يقوله لهم الإنكليز من أن الحكومة المصرية والأتراك لا يدينون بالدين الاسلامي لأن أهلك قبيلة سليم يارسال أربعة آلاف جندي عليها كان بأمر خديوي مصر ولكن العقلاء كانوا يعرفون سر الدسيسة وهو أن الحكمدار غردون كتب إلى الخديوي يقول أن قبيلة سليم نبذت طاعة الحكومة ونارت عليها فأذن سموه بكبح جماح الثائرين وتأديبهم .

وكان المهدي تجاه هذه المظالم يشدد التنكير على الحكومة والناس يستنبرون بأرائه ويتنورون بنار ذكائه وأخذوا يرتقبون فرصة للخروج من ريفه تلك السيطرة الانكليزية . أما السودان فبعد أن كان يؤدي إلى مصر جزية سنوية بعد تفقاته نحو ٤٠ ألف قنطار سنا ونصف مليون من الجنميات أصبح يتقاضى من خزائنها مليون جنيه في السنة لينفقها في مصالحه مما لم يعهده مثيل منذ ضم السودان إلى أملاك مصر . فليتأمل العاقل إلى أي حال أوصلة الجور والظلم وفي آية هاوية أوقعه أولئك المصاحرون . .

. . .

جاء في كتاب (السودان المصري والانكليز) ويتصل إتصالا وثيقا بموضوعنا قول صاحبه ما يأتي : —

و علم القراء ما أحدثه الإنجليز من الفتنة والعداوات في داخلية السودان
أى في مديريات دارفور وكردفان وفاشودة وبحر الغزال ولما كان غرضهم
الوحيد هو سلخ السودان عن مصر بتعميم الاضطراب في جميع أنحاء
حتى تعجز الحكومة عن قمعها وكبح جماحها أخذوا يسهون في بث الشقاق
بين قبائل السودان الشرقي أى في مديرية كسلا ومأمورية القضايف
ومحافظة مصوع وهرر وزيلع وسواكن فاستعملوا عليها جماعة من
مأجوريهم الإيطاليين والتمسا وبين مثل (مارويك مبيديا) وغيرهم
من أعوانهم ومن تحقروا ميلهم إليهم من أولئك الذين لا وطن لهم غير
الرائب فراح هؤلاء يضرمون نيران الشقاق بين هاتيك القبائل وحسن
الحظ أنهم لم يفلحوا وظلت أمم السودان الشرقي مخلدة إلى السكينة الثامة
وطاعة الحكومة ومصادقتها وكانت عروق التجارة بين هذه الأمم وبين
الحبشان دائمة نامية لأنهم كانوا مستوطنين بلادا واقعة في جيرة الحبشة
من ناحية الغرب وفوق ذلك فإنهم كانوا متوادين متحابين وكان الحبشى
يحرصنا محافظا كل المحافظة على مصافاة الحكومة المصرية ودينه وبين سمو
الخدوي اسماعيل باشا رسائل ود وحسن تواصل وتهاد وما ذلك إلا
لأن المصريين لم يكونوا طامحين إلى بلاده فلم يكن مضطرا إلى إقامة
حامية عسكرية في نخومه أو حشد جنود لرد غاراتهم وصدد مظالمهم كما
تفعل إيطاليا اليوم مع خليفته وذلك مع طول مدة مجاورتهم له التي لا تنقص
عن ٧٠ سنة ولذلك ترى الأحباش اليوم يأسفون على فراق مصر جاراتهم
الأمينة الآلفة ويرددون زفرات الحنين على بعدها .

ولما خابت مساعي الإنكليز ومأجوريهم في إحداث ثورة في السودان الشرقي مع ما بذلوه من أموال الخزانة المصرية ورأوا أن سكان هذا الشرق لا يزدادون إلا مسكونا عمدوا إلى الخيل التي حركت سواكن والجهات الأخرى وعطلت تجارتها فأخذوا يستأجرون لصوصا بمرنبات شهرية وبأمروتهم بقطع السبل التي كان يسلكها التجار الوطنيون والتجار الحبشان فأخذ التجار حذرهم وأصبحوا لا يسافرون إلا إذا احتشدوا الوفا لتسهل عليهم مقاومة أولئك اللصوص السياسيين وصيانة تجارتهم فأفلحوا أفلاحا مبينا .

ولما رأى الإنكليز وأنصارهم أن هذا المسمى الجديد لم يكن قليلا أخذوا يدبرون غيره ، فقر رأيتهم على زيادة المكوس والدخوليات فضربوا على زق العسل أربعين قرشا مع أنه لا يساوي إلا خمسة قروش فقط وجعلوا على قنطار البن ٨٠ قرشا مع أن ثمنه ٦٠ قرشا لا غير . فقامت قائمة التجار ورفعوا عريضة إلى الحكمدار غردون يشكون فيها من لائحة المكوس والدخوليات الجديدة فعنفهم وقال لهم إنكم تخاسون تجابور الأرقاء من بلاد الحبشة وإلى أريد قطع تجارتكم هذه ثم أصدر أمره بأن كل من شك من هذه اللائحة يحاكم طبقا لللائحة بيع الأرقاء وذلك كفعله مع زملائهم التجار في دارفور مما أشرنا إليه في رسالة سابقة أما تجار الحبشان فكانوا يأخذون منهم تلك الضريبة الفاحشة وفوق ذلك يقيمون لهم العراقيل تذهب بأموالهم كما تفام العراقيل في وجه

التجار السودانيين الذين يتواردون إلى مصر في هذه الأيام فرفع الحبشان شكواهم إلى النجاشي يوحنا فكذب كتابا إلى الحكمدار غردون يسأله فيه الرفق بتجار بلاده ويذكره بالماهدة الموضوعة بينه وبين الحكومة المصرية القاضية ألا يؤخذ منهم أكثر من اثنين في المائة فاغتم الحكمدار غوردون فرصة ورود ذلك الكتاب ليأتي عملا يكون قاضيا على مصافة الحبشة لمصر بل يكون سببا لإعلان الحرب بينهما مما تكون نتيجة قطع التجارة وحمل الحكومة على القيام بمعدات الدفاع وحشد الجنود إلى التخيوم حتى يكون لشرق السودان أسوة بغربه فكذب إليه جوابا يحشوه السباب والتهديد والوعيد ومما جاء فيه قوله للنجاشي :

« إلى ما جمع جنودي وأفعل بك كما فعل الإنكليز بسالفك النجاشي كاسه نخذ لنفسك الحذر وسوف تعلم إنني لست خائفا كالإثراك »

ولحسن الحظ أن النجاشي عندما ورد إليه هذا الجواب قال إن حوله « أن هذا الرجل الإنكليزي وأنه يريد أن يوقع بيني وبين صديقي الخديوي اسماعيل باشا فأولي لي وأحجي لي أن لا أجيبه » فاستصوب وذاؤه هذا الرأي وأشاروا عليه بأن يكتب إلى الخديوي يخبره بهذه الحادثة التي أثار عامله الإنكليزي غبارها ولم تعلم ما جرى بعد ذلك ولسكتنا رأينا الحكمدار غردون جمع جنوده المصرية في القلايات المجاورة لمدينة غندر وبالغ في إظهار العداء للنجاشي وفي آخر الأمر سافر من القلايات إلى عاصمة بلاد الحبشة فقبض عليه وعلى من معه

وسبقوا إلى العاصمة لحاكمهم حيث دخلوا على الملك النجاشي بلا
استئذان وأخذ غوردون يعتذر إليه بقوله إني كنت مأمورا بأن أكتب
إليك الكتابة وأن الذي أمرني هو صديقك الخديوي اسماعيل باشا
فإصدق النجاشي وأقر وزرائه على محاكمته فسبق إلى المحاكمة فحكم عليه
وعلى من معه بالإعدام ولكن لما عرض الحكم على النجاشي يوحنا
ليصدقه أبى وقال أن الرجل لم يخرج عن كونه عاملا لصديقي خديوي
مصر فقتله بعد إهانة في جانب صداقته فاطبق الرأي حينئذ على إصلاقه
ليعود إلى التخوم المصرية ولكن من غير الطريق التي أتى منها فيسافر
من طريق أسمره فصوع مخفورا ويكون سفره في الليل لا في النهار لتلا
يكون جاسوساً المجلزياً .

(أما الإنكليز فالتهبوا غيظاً لأنهم لم يفوزوا من لدن نجاشي
الحبشة بما فازوا به من لدن ملك زنجبار) وهذه المناسبة يصح لنا أن
نذكر مسألة زنجبار والبلدان المجاورة لها كما ورد في نفس الكتاب ضمن
المقالات التي نشرها صاحبه في جريدة الاهرام قال : تقدم لنا انقول
في إحدى المقالات السابقة أن المنظور والمؤكد أن تكون أوغندا وما
يجاورها من البلاد طعمة لمن هو صاحب السلطة على أملاك خط
الاستواء التابعة لمصر أي أوغندا وما في جيرانها من البلدان كما ينظر
دخولها بحوزة مصر .

وقد أوردنا في المقالات السابقة ذكر الامتنة والاضطرابات التي

أضرم الانكليز ناراها في داخلية السودان المصري قبل ثورة المهدي
بزمان وأخذوا يحبسون كل رأى خطير لهم فيها ويستخدمون نفوذ
الحكومة المصرية في قضاء مآربهم وأطاعهم الإنكليزية .

ومن ذلك أن الجنود المصريين كانوا يرسلون حملة أثر حملة ايث
النفوذ المصرى بين تلك القبائل فكانت لا تلقاهم إلا بالخضوع ولا
تستقبلهم إلا بالخفاوة وفي سنة ١٨٧٢ شخصت احدى هذه الحملات عن
طريق اوغندا الى زنجبار فلم تلق في طريقها اقل عشرة حتى بلغت تحوم
المملكة الزنجبارية فاستقبلت هناك بكل بشاشة وإيثار واطهر لها السكان
ميلهم الى مخالصة الحكومة المصرية وحظى قائد الحملة المصرى بمقابلة
ملك زنجبار فلقى من الأكرام والخفاوة بين يديه اعتفاف ما لقيه عند
قواد التحوم فأظهر له الملك رغبته في مصادقة الحكومة المصرية وأنه
يريد أن تظل مملكته بالعلم المصرى على شريطة أن يمنح امتيازاً خاصاً
يضمن له السلطة عليها وابدئ له اسفا شديداً على كون قومه المصريين
لم يعرفوا بلاده منذ زمن طويلى . ثم اخبره أنه تابع لأمير المؤمنين والخدام
الحرمين وأنه يخطب باسمه في كل بلاده وبعد ذلك عقد مع القائد المصرى
اتفاقاً وقع عليه الاثنان ليعرضه القائد على حكومته المصرية حتى إذا
أصدفته أصدر الأمر باتباعه وهذا نصه بحرفه .

المادة الأولى :

أن تكون مملكة زنجبار تحت الحماية الإسلامية العثمانية المصرية
ويكون الملك محصوراً بالتوارث بين ذرية الملك الحالى أو بين أسرته

وبالحجة ان امتياز الملك في مملكته يكون شبيها بامتياز سمو الخديوى
اسماعيل باشا واسرته في مصر .

المادة الثانية :

ترسل الحكومة المصرية موظفين من قبلها ليقوموا بتأليف هيئة
الحكومة في زنجبار وتنظيم المالية والجند طبقا للنظامات المتبعة في
الحكومة المصرية ولا يجوز تعيين مصرى لأية وظيفة كانت إذا وجد
وطني يقدر على القيام بها .

المادة الثالثة :

ترسل الحكومة المصرية مندوبين من اصداقائها ورجالها الجنوبيين
ليؤيدوا كل النظامات التي تسن في مملكة زنجبار بشأن إنشاء نظارات
مالية وداخلية وحرية ونظارة المعارف ونظارة الأشغال ويكون
التلاميذ المتخرجون من مدارس المملكة مقدمين على غيرهم في الترشيح
للووظائف ولا يجوز لمصر أن تطلب عساكر من زنجبار إلا إذا حدثت
حرب دينية بين امير المؤمنين وعدو آخر فيطلب هو حينئذ جنودا من
زنجبار . ثم أن علائق زنجبار وصلات شؤونها كلها من الدول الأجنبية
يكون عقدتها وحلها على يد نظارة الخارجية المصرية .

المادة الرابعة :

لا يجوز للحكومة المصرية أن توظف في مملكة زنجبار احدا من

الاجانب الغير المسلمين إلا إذا كانوا من رعاياها فلا بأس حينئذ من منحهم وظائف .

المادة الخامسة :

أن كل الاموال التي تنجي من مملكة زنجبار تنفق في شؤونها وما يفي بعد ذلك تؤخذ الى الخزائن المصرية وتكون مصر ملزمة بصرف كل ازمة مالية أو حربية تصيب مملكة زنجبار .

المادة السادسة :

يتخذ مفعول هذه بعد اطلاع خديوى مصر عليها واصدار أمره بقبولها .

وبعد عقد هذه المعاهدة قفل القائد راجعا إلى خط الاستواء بعد أن ناب عنه احد الضباط المصريين مسرورا بما نالت حكومته مبتهجا يكون هذه المعاهدة الراجحة ابرمت على يده ولكن نسي أن حكومته في غفلة عن هذا الفوز المبين وانها احلت في مكانها اصدقاءها الانجليز ولذا وجد القائد هؤلاء الاصدقاء آسفين نادمين على كونهم فرطوا في تسليم قيادة هذه الحامية إلى قائد مصرى ولم يولوا انجليزيا أو إيطاليا عليها وايضا انهم ليسوا بمفلحين إن فازت مصر بهذه الامتية فقبضوا بأظافر الثور ورائن الشاهين على تلك المعاهدة التي كادت ارواحهم تزهق لدى مطالعتها ومن غريب ما حدثته ان الحكمدار غردون أخذ غداره مدسمة وأراد أن يقتل بها نفسه لولا أن امسكه ومنعه الخواجا ثوراتو الايطالى وحق

به الميسور فردريك وغيرهم من الانجليز وماجورهم وكان يردد هذه العبارة [ماذا يقول عنى قوى الانجليز إذا تم هذا الوفاق الذى جعلنى من انذل ابناء جلدتى] وبعد أن امسكوه واخذوا يسكنون روعه تاب إليه رشده الذى استلته عامل الحسد والطمع. فليتأمل العقلاء وليقيسوا على هذه الحادثة غيرها مظاهر الشدة والانانية الذميمة التى استأثر بها الانجليز واشتهروا بها فى العالمين بعد أن عدل غردون على مفارقة الدنيا أخذ هو وانصاره يدبرون طريقة يفسدون بها المعاهدة الزنجبارية فقر رأيهم على أن يبذلوا الرتب والوظائف بغير حساب لمن حولهم من الموظفين ليتمكنوا خيبرها الرنان .

أما القائد الذى عقدها لحكموا أن لابد من إبقائه فى جنابة يختم بها عمره لأنه كفر بنعم الانجليز وهم الذين ولوه قيادة تلك الاخلة فادعوا عليه أنه اشترى رقيقا من الزوج وفى الحال قبض عليه وأودع فى السجن وامسك الحكمدار غردون المعاهدة وكتب كتابا إلى سمو الخديوى اسماعيل باشا يقول فيه .

• ان ملك زنجبار قام فى وجه النفوذ المصرى وامر جماعة من التجار المصريين فأرسلنا حامية عسكرية لاستطلاع اخبارهم فاقبها لسوء الحظ بأشد ما يكون من العداء مقاومه طويلة حصرها فى إحدى النقاط فأصبحت على شفير الهلاك ولأتى أرى أن افضل وسيلة لانقاذها هى أن تهدى إليه هدية ثمينة وتودد إليه عسى يكون وراء توددنا ما فيه خلاص حاميتنا من يدية .

لله دره على هذه الحيلة وقد انطلت على المغفور له الخديوي اسماعيل
باشا فامر بإرسال الهدية بلغت قيمتها ٢٠ ألف جنيه مصري واصحبها
بكتاب منه إلى ملك زنجبار فاخذ الحكمدار غردون هذا الكتاب والحقه
بالمعاهدة . . .

وأرسلت الهدية مع المستر لو كس السائح الانجليزي الذي كان حاملا
كتبا تدل انها مرسله من الدولة الانجليزية إلى ملك زنجبار وتضمن تحذيرا
له من وضع مملكته تحت الحماية المصرية ونصائح عديدة من علماء السوء
بالقدح في الامامه إلى غير ذلك من الهجاء الذي لا نستطيع ابراده
بالحرف الواحد وما ورد فيه أن مصر أمه بربريه فان كانت مملكة زنجبار
ترغب الانحياز إليها كان انحيازها وبالا وشؤما والدليل على ذلك أن مصر
تستخدم الأوروبيين في بلادها ليهبوا القطن فيها وعلى أثر هذا التدليس والتقليق
كسب الانجليز مودة ملك زنجبار بأموال مصر وعدل هذا الملك عن
نيته في مخالفتها وبذا الثقة بها وانسحبت الجنود المصرية من تخوم زنجبار
بدعوى انهم اطلقوا من الأسر وهكذا اختتم الطمع الانجليزي هذه
الرواية المخزنة التي لا نظن أن أحدا سمع بها وليته لم يسمع . .

ونعلق نحن على هذه الرواية فنقول : أن اسماعيل سيرهناك باشا قد
نقل هذه المعاهدة في كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار) ولكنه
لم يستطع الوصول إلى معرفة اسم القائد المصري الذي خرج بالخملة إلى زنجبار
وعقد هذه المعاهدة مع . . ملكها . . ومع أنه قد تعذر علينا نحن كذلك

والوقوف على حقيقة ما جاء بها من وقائع مفصلة فمن الثابت أن التخليدوى
السامعيل قد أرسل في عام ١٨٧٦ حملة إلى مصب نهر الجوبة لإنشاء مركز
يطل على المحيط الهندي مرة واحدة مراقبة نشاط تجارة الرقيق في
الساحل الأفريقي الشرقي ولكن هذه الحملة لم تثبت أن انسحبت نتيجة
لاحتياج سيد برفش سلطان زنجبار بتحرير بعض من الإنجليز وإدعائه
أن الأرض التي نزلت بها الحملة كانت من أملاكه . ومن الثابت المعروف أن
غردون باشا نفسه كان أول من أشار على التخليدوى بإرسال هذه الحملة . على
أن يخرج من ناحيته من اللادو عاصمة مديرية خط الاستواء لمقابلة الحملة
ومساعدتها ولكنه لم يفعل . ومن المحتمل أن يكون عقد المعاهدة السابقة
قد جرت قبل خروج هذه الحملة من مصر وفيها من السويس وأن تكون
هذه الحملة من نتائج عقد المعاهدة . وفضلا عن ذلك فهناك من الكتاب
من يزعمون تقصير غردون في الذهاب إلى الساحل الأفريقي الشرقي إلى
رغبة المصرية في تعطيل النفوذ المصري في هذه الجهات وخدمة المصالح
الإنكليزية . وقد يكون عدم خروج غردون من اللادو بسبب هذه
المعاهدة . بيد أن كل هذه الأقوال ليست سوى احتمالات . وإنصاف
للحقيقة والتاريخ نرى لزاما علينا أن نذكر أن موقف غردون
من مسألة نهر الجوبا وزنجبار على وجه الخصوص كان سليما في جملة
وتفاصيله . أما رواية صاحب السودان المصري والإنجليزي ، فإن أقل
ماتدل عليه هو أن أهل السودان ومن عاصر منهم هذه الحوادث كانوا
يرون في كل فعال الإنجليز خطة مبيتة ومؤامرة حيكوا أطرافها من زمن
هزيل كان الغرض منها تفويض دعائم الحكم المصري في السودان واقتطاع
أطراف الممتلكات المصرية في أفريقيا تمهيدا لابتلاع السودان نفسه في
النهاية .

الفصل الرابع

إبطال الرق ومحاربة الإسترقاق

تهديد . تاريخ العبودية والرق . الرق في مختلف الأديان . أرق في الولايات المتحدة . الفوارق اللونية في أمريكا . مبادئ الدعوة لإبطال الرق . حرب الشمال لجنوب من أجل إبطال الرق . المشاكل الجنسية في أمريكا وأفريقيا . الاندماج الجنسي بين شعوب الوادي

قيل أن المسيح عليه السلام قابل الشيطان يوماً في السوق العامة ووثقه على سلوكه السيء في بث الفتن وخلق المشاكل والمتاعب بين الناس

فاجابه الشيطان . الأمر على عكس ما فهم المسيح ثم تناول قطعة من الخلوى وأصغها بالخائط فوقعت عليها ذبابة . فرأت سحلية هذه الذبابة فوثبت عليها ، فشاهدت قطعة تلك السحلية فقتلتها . وكان أحد الجنود البريطانيين يسير في ذلك السوق مع كلبه ، فوثب الكلب على القطعة فقتلها فقتل صاحب القطعة الكلب فقتل الجندي البريطاني صاحب القطعة . ولم يمض وقت طويل حتى وقع الاضطراب واستدعي اطلاق المدافع فالتفت الشيطان إلى السيد المسيح وقال :

« هل سمع سيدي صوت المدافع ورأى فكها وأنا لم أصنع شيئاً لإحضرارها ؟ »

أما الإنسكيز فقد كانت حلواؤهم النذرخ بدعوة لإبطال الرق وكان
سوقهم السودان . . . وابن مكر الشيطان . من حيث البريطاني ٩٩٩

في مقدمة النقط التي يتلاقى عندها العلم والدين ما تقول به نظرية
التطور أن الناس كلهم من أصل واحد . إذ الأرجح أن يكون هناك
نوع بشري واحد بدأ ظهوره في آسيا أو في غيرها بعد أن قطعت الأحياء
شوطا بعيدا في سلم التطور . . ثم حدث التنوع والاختلاف بين البشر
باختلاف اتجاه الجماعات وتباين البقاع التي استوطنتها أزمانا طويلة .
إذ أن للبيئة الطبيعية - كما لا يخفى . وما لتلك البيئة من مؤثرات المناخ
والغذاء وأسلوب العيش وغيرها أثرا بالغاً في تشكيل الأجسام وتنوع
الألوان وفضلا عن ذلك فلبينة أثرها في العادات والخلق . . وبذلك
تفرعت السلالات البشرية وظهر بينها أقوام من البيض والسود والصفر
والآخر . ويرجع ذلك التنوع إلى ما قبل تاريخ الإنسان المعروف
بزمن بعيد .

أما السود فهم الذين لوحث شمس المنطقة الحارة بشرتهم وميزاتهم
الاعتبارات الجسدية الوراثية عن غيرهم ، وحالت مؤثرات بيئتهم
وعزلتها بينهم وبين النحضر والاندماج في الأمم وكان لذلك الرزق
الميسور الذي تفيض به الغابات والمراعي حولهم . وذلك الجو المرهق
الشديد الحرارة ما حاهم على التراضي في الكد أو التفرغ في التماس سبل
العيش أو الاهتمام بالمستقبل فهم يعيشون في الحاضر قائمين بالكفاف

يحويون حياة ساذجة فطرية مستسلمين للتقادير يعملون الظواهر الطبيعية
بالسحر وفعل الأرواح ، ويستوطن الزنوج بعض أنحاء المنطقة الحارة
في إفريقيا وجنوب آسيا ويعيش منهم نحو ١٥ مليوناً في أمريكا وهؤلاء
يرجع أصلهم إلى إفريقيا ، أما زنوج إفريقيا فسلالات مختلفة يجمع بينها
سواد اللون . ومن أشهر السلالات السوداء سلالة السود أصحاب القامة
الطويلة والرأس المستطيلة والشفاه الغليظة والأفئد الانفاس والشعر
المفلفل ، أولئك الذين يقطنون المنطقة المعتدلة من المحيط الأطلنطي إلى
أعلى النيل الأبيض . ثم الأقزام الذين يعيشون في حوض الكونغو
والباتنوا وهم خليط من السود والحاميين القدماء ويتشرون في الحضبة
الجنوبية وكذلك سكان صحراء كلهاري وهم البشيان والبوانتوني
الآخرون في الغناء والانفراض . ثم القولة والزنده والجلأ والهوسه .
وزنوج إفريقيا بل جميع زنوج العالم تحكمهم وتسودهم الشعوب البيضاء
عما في ذلك جمهورية ليبيريا في إفريقية الغربية وهي الجمهورية التي أسستها
الولايات المتحدة الأمريكية ليهاجر إليها زنوجها إذا شاءوا الاستقلال
والبعد عن المشاكل . . . وهذه الجمهورية تخضع في الواقع للحماية
الأمريكية وتحكم حكماً غير مباشر . وليس لها من الاستقلال إلا الاسم .

وقد شرح كتاب « مانو » أحد كتب الهند المقدسة مذهب البراهمة
ونشأة المدينة الآرية لجاء فيه أن أصل العميد سبعة . أسير الحرب ،
ومعدهم رضخ لمن يكفل معاشه . وابن العبد المولود في بيت المولى ، والفرد
مهدى هدية أو مبيعا يباع ، والمتنقل بالإرث من الوالد إلى الولد ،

والمستعبد عقوبة له على جناية ارتكبها ، والمستعبد لعجزه عن تأدية دين أو ضريبة أو غرامة . وسواء ألم هذا الإحصاء بكل الأصول أو أغفل بعضها فالعبودية قديمة كالخرب والحروب من خواص الخليفة ولقد تحكمت طبقة الأحرار في مصائر طبقة العبيد السود ودخل هؤلاء الآخرون في حوزة الأحرار منذ بدأ العمران .

ويقول هربرت سبنسر أن أول العبيد هم أسرى الحرب وقد جرت العادة بأن يأكلهم الغالب في ولائم النصر . وأنه عندما كثر عددهم أجل قتل بعضهم للتلذذ بلحومهم المشوية في ولية أئمة ليصير النصر الواحد نصريين . واستخدم العبيد خلال هذه الفترة ، فأثار استخدامهم انتباه السادة المنتصرين عليهم إلا أن حياة الأسير أنقذ للغالب من موته .

وعندما نزلت الشرائع أباححت الشريعة اليهودية أن يملك الناس بعضهم بعضا وأن يستعبدوا أخاهم اليهودي ستة أعوام أما غير اليهودي فيظل في العبودية حتى الموت .

ولا يفهم ما ورد في إنجيل يوحنا قولهم للسيد المسيح عليه السلام : نحن لم نستعبد لأحد قط ، وهم خاضعون يومذاك للاحتلال الروماني وقد بيعوا في أسواق أورشليم . وجاهروا في كتاباتهم بأنهم استعبدوا سبع مرات في أرض الميعاد ، ومن يحمل بيع عيسو بكوربته ليعقوب بأكثر من عشرين مرة ، وقبل العبودية الذرارية ؟ ولكن العرب الذين ينسبون إلى عيسو كانوا يحون بسيادتهم وعظمتهم حقوة السلف

الجائع . وقد باع بنو يعقوب أخاهم يوسف للتجار وباعه هؤلاء في مصر لخدمته في السنين الجوانح وجر إليها ذويه فاستهى بهم الأمر إلى الرق ولم يكن ليطلق سراحهم لولا الضربات العشر الذائعة الصيت كما ترويه الكتب المقدسة .

ألم يكن للنصرانية والإسلام من أثر في القلوب لنحملها على الرحمة والعطف ؟ لا شك في أن الدين أيا كان له تأثير ظاهر وألمك إذا أحصيت العوامل الكبرى ذات الأثر البالغ في تكييف النفوس لوجدت الدين في مقدمة هذه العوامل . وقد اتفق السيد المسيح تلاميذه من بين الخاصين ومضى ينادى بالمساواة والغفران وحب الأعداء لأن الجميع أبناء الله بدعونه وكان الإسلام من الناحية العملية أكثر نقاداً إلى حقائق الأمور وجد العبودية عند شعوب مبيته ولكنه لطفها إيماناً لطيف وعلى مقربة من تعاليمه العالية ونصائحه الحكيمة . أنه أوصى باليتم والضعيف وابن السبيل والرفيعة .

وكان الطائع الأول النبي العربي ذاته فقد بيكى (صلعم) عبده الميت كما بيكى الكريم صديقاً عزيزاً . فكانت حال العبد في دين الإسلام أفضل حالات أمثاله . أما الاعتاق والدعوة إليه فمن أعجود صفحات التاريخ المحمدى .

والواقع أن العبودية عند المسلمين أخف منها عند غيرهم . ترى بين العبد والمولى تبادل أمانة ورعاية وصلة رحم وللعبد أن يتزوج أرملة

سيده وبنفسه عاتق وحريته مكفرة والعبيد عندهم يقومون بشئ الأعمال
والنساء للخدمة المنزلية والرجال يفلحون ويزرعون ويرعون الماشية
ويشتغلون بالأعمال الحشنة والصبية المتأفقون يقومون على خدمة الضيوف
ولإكرامهم ويعتدون المركبات ويرافقون ابن مولاهم في الصيد وفي النزهة
ويشاطرونه دروسه وألعابهم كأنهم المالك الصغار في بعض البيوت
الشرقية .

وهكذا عومل العبيد برفق فأحبوا مولاهم . إن غاب أحدهم يوما
تألموا لفراقه وانتظروه باكين مسرورين عاد أقبلوا يلتمعون يده ووجهه
فرحين مستبشرين ، وإذا اكتسبوا ثقتهم يحسن سلوكهم ورجاحة عقلهم
أطلق سيدهم أيديهم في ماله وشئونه وحفظ لهم في نفسه مكانة ظاهرة
فزوجهم من بناته وصاروا أحب الناس وأقربهم إليه . وآفة ذلك . أن
ممالك الأيوبيين في مصر أنشأوا ملوكا وأسسوا دولة عاشت طويلا .

وقد ظلت مصر والشام في حوزة الممالك الذين ابتاعهم السلطان
الصالح نجم الدين أيوب مدة قرن وثلاث قرن تقريبا من الزمان .

وصار الناس في مصر والشام والسودان أما عبيدا وأما موالى
وصدب على الإنسان أن يجعل حدا فاصلا بين العبيد والموالى لأنه حدث
بفضل الزواج والتجنيد وانتشار التعليم أن وجد بين العبيد من صاروا
موالى كما وجد بينهم من هم عبيد وموالى في آن واحد .

وعندما وصل محمد علي باشا الى اريكة الولاية كان البكوات الممالك
هم أصحاب السلطة الفعلية في مصر . وكان الرق جزء من النظام الاجتماعي
والاقتصادي السائد في البلاد . وقد وصف المعاصرون الأجانب ما يلقاه
الرقبي (أو العبيد) من رعاية وعناية فائقتين من جانب أسيادهم .
وعند ما دخل المصريون السودان كان الرق متغلغلا كذلك في كيان تلك
البلاد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . وكانت مهمة محمد علي في واقع
الأمر تقييد الرق في تلك الديار بصورة تساعد مساعدة فعالة على كبح
جهاج النخاسين وتخفيف ويلات الإنسانية بإبطال الاسترقاق وهي .
سبل العيش النافع للرقبي بالخدمة في الجيش والحقل والمصنع . ولم تعرف
مصر مدة محمد علي وخلفائه أية فوارق جنسية تفضل بين العبيد السود
وبين سائر أبناء الامة بسبب الامتزاج والاندماج وبغير تفرقة عنصرية
حتى أنه لو استطال بنا الزمن لقضى على الفوارق الجنسية جميعها وخرج
عنصر قوى جديد كالعنصر البرازيلي الذي هو نتيجة الاختلاط بين
البرتغاليين البيض والهنود الحمر والأفريقيين السود أو كما حدث في شيلي
حيث تبلغ نسبة العنصر الخليط نحو مئتين في المائة وفي بيرو حيث تبلغ
نحو خمسة وثلاثين في المائة وللقارىء الكريم أن يقابل بين هذه الحالات
جميعا وبين حالة الزوج في الولايات المتحدة الأمريكية الذين يبلغون
نحو عشرين مليوناً فإن لعلاقة الزوج بالبيض هناك قصة طويلة
مؤلة تؤلف جزءاً هاماً من تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية وخلاصة
هذه القصة . أنه لما عزم الزعماء الأمريكيون أن يشوروا على إنجلترا في

الثالث الأخير من القرن الثامن عشر بحثوا عن أقدس الحقوق الإنسانية واتخذوها شعاراً لهم فصرحوا في إعلان استقلالهم أن الحرية حق من حقوق البشر الأساسية وأن قوة الحكومة مستمدة من قوة قبول المحكومين لسلطانها فدوخوا بذلك ثورتهم على الإنكليز بيد أنه ما دأن النصر لهم حتى نسوا هذه المبادئ النبيلة وكيّلوا فريقاً من البشر وهم الزنوج بالأغلال وكان الجشع والأنانية رائد الأحزاب السياسية الكبيرة وكانت هذه تزيد الرق وتحمي ملكيته وقد ظلت الحال على ذلك نحو نصف وسبعين سنة حتى إذا تأسس حزب الجمهوريين قاوم هذا الحزب الجديد دخول الرقيق الأسود في غير تلك الولايات التي كان موجوداً فيها فعلا في ذلك الحين وكان هذا الحزب يأنى معارضة شديدة من جانب الحزب الديمقراطي القديم في الولايات الجنوبية خصوصاً ذلك بأن أعضاء الحزب الديمقراطي في الجنوب كانوا يرمون إلى تعميم الرق في كل البلاد بينما أصر أعضاء في الولايات الشمالية على أن يترك لكل ولاية الحق في تقرير شرائعها فيما يتعلق بمسائل الرقيق وكان بفضل نشاط الجمهوريين أن بدأ الرق الأسود يزول رويداً رويداً من بعض ولايات الشمال وبدأ يتسع نطاق المنافسة في أمر إلغاء الرق عموماً ولكن بعض الولايات الجنوبية ما لبثت حتى هددت بالانفصال عن الاتحاد إذا أُلغى الرق فعند فريق من الزعماء والقادة إلى التوفيق بين الولايات وإزالة أسباب الخلاف بينها بأن أقاموا خطاً فاصلاً بين الحرية والرق وقسموا الولايات إلى حرة وأخرى تباع الرق .

زعم المصلحون الأمريكيون أن ذلك الرق الأسود سوف يزول
بمضى الزمن غير أن الأمريكيان ما لبثوا حتى اعتادوا وجوده واعتبروه
شرا لا بد منه ثم زادت أهمية الرقيق من الوجهة الاقتصادية حينما اتسع
نطاق زراعة القطن في الولايات الجنوبية وزاد تصديره إلى أوروبا
فكثرت الأرباح وعلى ذلك فقد تشبث أهل الولايات الجنوبية بنظام
الرق وقد زادهم عناداً على عنادهم ظهور الجمعيات الإصلاحية التي أسسها
في الشمال (وليم جارسون) وقد بدأت هذه تنادى بعنق العبيد وكانت
ترى في الرق جرماً يرتكب ولا يليق بإنسان شريف أن يرضى به .

وما أن انتخب أبراهام لنكولن رئيساً للولايات المتحدة عام ١٨٦١
وكان من كبار مؤيدي إلغاء الرق وتحرير العبيد حتى اشتد استياء
أهل الجنوب وجأهروا بالعصيان والانفصال عن الشمال وكونوا
دولة «كنفدرالية» في الجنوب انتخبوا جفرسن رئيساً لها فأعلن لنكولن
في خطبة الرئاسة بأن الوحدة الأمريكية لا يمكن أن تنضم عراها وأن
كل عمل غابتة لقضاء عليها باطل ثم صرح بعزم حكومته على الدفاع عن
حقوقها وسلطانها وإن اقتضى ذلك استخدام القوة . ثم حاول (لنكولن)
أن يحافظ على الوحدة من غير أن يلجأ إلى قتال ولكنه أخفق في مسعاه
بسبب إصرار زعماء الجنوب على تمسكهم بموقفهم فبدأت الحرب بين
أهل الشمال والجنوب واتسع نطاقها وتطاول شررها فكانت الحرب
الاهلية الأمريكية المعروفة التي دامت نحو أربع سنوات والتي انتهت
بفوز أهل الشمال عام ١٨٦٥ بعد أن قتل في معاركها نحو مليون نسمة

وأصيب أكثر من نصف مليون بإصابات مختلفة وكان من نتائج تلك الحرب الأهلية أن قضى على الرق نهائيا باعتراف أهل الجنوب أنفسهم بالغائه وأدخل على الدستور تعديل يقضى بتحريم الرق في جميع الولايات المتحدة الأمريكية غير أن إلغاء الرق أمر والوصول إلى حل لمعضلة الزوج بأمر بكا أمر آخر .

حقيقة يتساوى الزوج في الولايات المتحدة الأمريكية مع البيض في الحقوق قانونا ولكنهم يعاملون فعلا كالعجموات ذات النفع القليل حيث يعتمد البيض إلى التخلص من الزوج بشق الوسائل وبخاصة إذا أسوأ منهم شرا وتكاد تكون وسيلة الأمر بكان في ذلك إزهاق أرواح السود دون أية محاكمة . إذا ألقى سوء الحظ بأحد هؤلاء المناكيد في أيديهم على أثر جريمة ارتكبت أو شر لحق برجل أو امرأة من البيض ووقع الاتهام على كاهن زيجي من الزوج . ومع أن الدستور الأمريكي قد ساوى بين جميع أفراد الشعب فيما له من حقوق وما عليه من واجبات فإن بعض الولايات الجنوبية مثل (نيو أورليانس) قد حرمت فوائدها مجاورة الزوج للبيض في مساكنهم فلا يجوز لرجل أسود أن يتخذ مسكنا في حي يسكنه للبيض ولا يحق لرجل أبيض أن يقطن في حي مأهول بالزوج وتعود أسباب ذلك للنفور الوراثي المستحكم بين السود والبيض بأمر بكا إلى أسباب عدة :

أولا : أن الاسود إذا تزوج من فتاة بيضاء جاء نجلهما أبيضاً أو

أسوداً أو وسطاً بينهما فإذا تزوج أحد الأمريكان البيض من ابنة الزوج
البيضاء فإنهما قد ينسلان سلالة سوداء طبقاً لقوانين الوراثة .

ثانياً : أن العامل الزنجي يزاول هناك الأعمال الحقةرة والمهن
الوضيعة التي يعاقبها البيض ، والزنجي يرضى بالأجر القليل الذي لا يرضى
به العمال البيض .

ثالثاً : أن الأسود لا يعترف بمبدأ تحديد النسل فهو كالحَيوان يكثر
من الأولاد ولما كانت تتكفل بذلك الحكومة حيث لا يستطيع الانفاق
على تعليمهم وفي هذا إرهاب لميزانيتها ويسبب إلى قرض الضرائب الكثيرة
وليس هناك أى أمل في إزالة هذا النفور القديم والعداء المستحكم بين
البيض والسود في أمريكا على الرغم مما وصل إليه الأمريكيون من
حضارة ورقى .

وفي إفريقيا الجنوبية لا تقل مشكلة البيض والسود في خضورتها
عن مثيلتها في العالم الجديد ، وترتد أصولها إلى الوقت الذي بدأ
فيه الهولنديون يستعمرون جنوب إفريقيا عند ثلاثة قرون تقريباً
وكانت يقطن هذا الجزء من القارة ، قبائل ، الباتو ، البشانا ،
والخوتنتون فاضطرت تلك القبائل إلى الارتحال نحو الشمال تدريجياً
بسبب ضغط البيض عليها . ثم أخذت القبائل تتكاثر على مر السنين كما
صارت تزداد صلاتها رويداً رويداً بالمدن التي أنشأها البيض ، فلم يمض
زمن طويل حتى ظهرت مشاكل عدة كان سببها أن أقلية من البيض

صار تستعمر اقلها نقطته اكثرية من السود وتتحكم في مصائر هذه
الاكثرية ثم زادت خطورة هذه المشاكل عندما اشتد النزاع بين البوير
البيض وهم اول من استعمر تلك الجهات وبين الإنكليز حينما ضموا
إلى امبراطوريتهم افريقية الجنوبية . وكان للاعتبارات الاقتصادية
شأن ظاهر في المارة هذا النزاع لأن البوير الذين يحترفون الزراعة ويربون
الماشى كانوا قد خرجوا على اقتناء الرقيق الاسود ليعمل في مزارعهم .
بينما الإنكليز يحاربون مبدأ الرق ويكافحون النخاسة وتجارة الرقيق
وفضلا عن ذلك فإن المرأ لا يسعه أن يترك موضوع الرق في الولايات
المتحدة الامريكية وافريقية الجنوبية دون أن يقرر حقيقة تاريخية هي
أن العلاقة بين السود والبيض في هذه الجهات ، كانت علاقة استغلال
بلغ أقصى حدود السوء . استقلال البيض للسود الى جانب احتقارهم
وازدراءهم وقضييق سبل العيش عليهم وازهاق ارواحهم .

فانه بعد أن ذاع اكتشاف امريكا أخذت جموع المهاجرين الأوربيين
تدفق على القارة الجديدة من كل حدب وصوب وشرع هؤلاء يؤسسون
المستعمرات التي اتسعت رقعتها سريعا فامتدت على طول الشاطئ
الشرقي ، وتوغلت في داخل البلاد وعندما احكم الإنكليز سيطرتهم
على هذه الولايات ، الجديدة إزدادت المستعمرات اتساعا كبيرا
وصحب هذا الاتساع ظهور الفوارق الجغرافية بين مختلف الولايات
إذا كانت الجهات الشمالية اكثر موافقة لسكن المهاجرين الأوربيين
بسبب مناخها الملائم لهم وكان هؤلاء يزرعون بها الحبوب ويربون

الاغنام أما الجبال الجنوبية فهي شديدة الحرارة اعتمد أهلها على زراعتها
الدخان والقطن والقصب وعلى ذلك فقد عمد المستعمرون في الولايات
الجنوبية الى تسخير السكان الاصليين أي الهنود اخر وارهاقهم ارهاقا
شديدا حتى كادوا يبيدوهم جميعا وعندئذ اضطروا الى جلب الزنوج
من افريقيا للعمل في مزارعهم الواسعة فتألفت شركات من الانكليز
والهولنديين الذين استخدموا القناصة و الحطافة ، لصيد الزنوج ثم
تألفت شركات ملاحه نقل هؤلاء النعساء ونقلهم من افريقيا الى امريكا
مقيدين بالسلاسل والاغلال وعلى الرغم من أن الدين المسيحي يحض على
الرأفة فان هؤلاء السود لم يكونوا في نظر المستعمر الاوربي سوى العوام
واغنام يرمقونهم بعيون المهانة والاحتقار ولا يقيمون لحياتهم وزنا
ومع أن موارد الثروة الاميركية تتوقف على ما يبذلون من جهود ونشاط
فقد ظلوا متبوذين . ولو ألغى الرق وقتذاك دفعة واحدة في الجنوب
لحدث انقلاب خطير في حياة البلاد الاقتصادية .

وواقع الامر أن هؤلاء الزنوج كانوا يعيشون في عز دائم وجهل
مطبق لا يلقون من (أسبادهم) الاوربيين غير الازدراء والمهانة فلا يعيش
الأسود بين الاوربيين عيشة الناس بل عيشة الدواب التي تكرم حول
حياتها على عمل مالا ينفعها . والأسود لا يشال من انقوت والغطاء
والراحة إلا ذلك القدر الضروري الذي لا يستطيع بدونه الاستمرار
على العمل . وهو إذا أراد أن يعيش من الأرض التي يشتغل عليها كان
لزاما عليه أن يجيب كل مطالب الملاك . فان هجر الأرض واقبل على

العمل في المصانع والمعامل وقع في رق أغنياء آخرين من البيض يقوم
بخدمتهم طوال حياته ويمضي ساعات طويلة في عمل آلي متجانس مضر
بصحته متلف لحياته . وإن هو استوطن الأرض وسد عوزة واكتسب
من كده فإن أحدا لن يتركه وشأنه بل سرعان ما يجد أنه مطالب بدفع
الضرائب فإذا تأخر في الدفع وسداد الضريبة خرجت الجنود لمحاربهه
حتى يجرح أو يقتل أو يرغم إرغاماً على العمل المرهق المستمر
حتى تحصل الحكومة منه على كل ما تريد وتطلب وهكذا على حد قول
أحد الكتاب الانكليز : —

و يبتدىء عمل الرجل الأبيض من مطلع الشمس وينتهي

عند غروبها . أما الرجل الأسود فليس لعمله بداية ولا نهاية .

غير أن هذه المآسي ما كانت لتستمر طويلاً دون أن يتحرك ضمير
الإنسانية وينصدي المصلحون الاجتماعيون لمعالجة مشكلة الزوج
والرق عموماً .

ومن طريف ما قرأت في هذا الموضوع ما كتبه أحد المفكرين
الأحرار ، شارلس برادلو ، حيث يقول مامعناه أنه لم يلبث أن أتى دور
تحرير العبيد من الرق بفضل كتابات الفلاسفة ونتيجة لتفكيرهم . فأتى
لا أعرف أن ديناً من الأديان الذائعة حرم الرق في الماضي ونهى عنه
وقد طال الدين المسيحي يؤيد العبودية حتى أن (كتاب العهد القديم)

صادق عليها بقوانين خاصة بها ولم يعلن (كتاب العهد الجديد) بطلانها ولم تبدأ حركة التحرير إلا في الثالث الأخير من القرن الماضي ولا يستطيع مسيحي أن ينكر أن حركة أبطال الرق في أمريكا الشمالية لغيت مقاومة عنيفة وعنادا مريرا من رجال الدين في الولايات المختلفة وأن الانجيل ومشر الوعد ونفوذ الكنيسة كل أوائك بمضدون ملاك العبيد ويقاومون إلغاء الرق .

لقد ظل العالم المسيحي يقتنص العبيد ويتجر بهم مدة ثمانمائة وألف سنة ولقد كان شارل الخامس أول عامل راسخ على يده تجارة العبيد بين العالمين — القديم والجديد — ومنذ مائة سنة أو أقل كانت مدينتا برستول وليتربول المشهورتين بالورع والقوى في ذلك الوقت محطات مفتوحة للوارد والصادر من الرقيق حتى تمت ثروتهما واتسعت تجارتهم الإدمية من البيض والسود على السواء . وفضلا عن ذلك فقد كان النصارى من اليونان في القرن التاسع يبيعون الرقيق إلى العرب . وفي القرن الحادى عشر للبلاد كانت تباع العاهرات علنا بيع الرقيق في أسواق مدينة روما وكان الربح المتحصل من بيعهن تستولى عليه الكنيسة . وعندما قام (وايم ويلد فرس) بكافح في سبيل أبطال الرق قال معاصروه أن مسيحيتهم مشبعة بروح الإلحاد لأنه كطالب بإلغاء الرق كان في نظرهم لا يؤمن بما أنت به الكتب المقدسة . وذكر على وجه الخصوص سفر الخروج (الأصحاح الحادى عشر) وسفر اللاويين (الأصحاح الخامس

عشرة) فقد حدث يوم ١٨ فبراير سنة ١٧٩٦ أن وقف ولیم بلر فورس في مجلس العموم البريطاني يقول أن فرنسا الملهمة والتي انتشرت بها الفوضى (بسبب الثورة المشتعلة بها) قد قضت على الاسترقاق ومنحت الحرية للأفريقيين بينما لا تزال انكلترا مبغية على الاسترقاق ومحتفظة بنظام يتسم بالقسوة والعنف ومن يقاها العصور البائدة . على أنه ما نادى بلر فورس بضرورة إبطال الرق حتى تبين له أن المحاكم الانجليزية وما لها من سلطان قضائي كبير . ومحافل اللاهوت الأسقفية وما لها من نفوذ ديني شامل كانت جميعها متحفزة للوقوف ضده ومعارضته وتسفيه آرائه وأيدي جورج الثالث وهو الملك المتدين المتميزه الظاهر من هذه الجرافة : جرافة المطالبة بإبطال الرق وفضلا عن ذلك فقد عارض مجلس اللوردات في منح الحرية للعبيد المناكب .

ومنذ نيف وستين سنة قامت جمعيات التبشير المسيحية بالدعوة إلى الحرية بين عبيد (دمراره) وهي المستعمرة التي تحكمها دولة انكلترا المسيحية فلم يكن نصيب أعضاء هذه الجمعيات سوى المحاكمة أمام قضاة مسيحيين — عيّنهم الحكومة الانكليزية في هذه المناصب — وصدر الحكم على هؤلاء المبشرين بأنهم مجرمون عصاة جرمهم التبشير بين العبيد بالعنق والحرية . وقد اتهم أحد المبشرين عند محاكمته في (دمراره) أمام محكمة عسكرية مركبة من أفراد مسيحيين بأنه يحاول تخريب العبيد على كره أسيادهم ويبعث في نفوسهم عدم الرضى ويشيع روح التمرد والتآمر والكراهية ضد أسيادهم الشرعيين ، فقضت المحكمة بأعدام ذلك المبشر

المطالب بالغاء الرق : شنعاً وأن يظل معلقاً في حبل المشنقة حتى تزهق روحه . وهؤلاء القضاة كانوا من أعضاء الكنيسة . أما المبشر البائس فكان من المطالبين بالاصلاح والمنادين بتحرير الجنس البشري من العبودية .

وفي سنة ١٨٢٣ نشرت الجريدة الرسمية في (دمراد) أمراً فيه ما نصه :

« نحن لا نسمح لأى واعظ ديني بأن يعمل على تنوير أذهان عبيدنا ،
الذين هم ملك لنا باعتراف القانون إلا أتيح لهم في الوقت نفسه أن ،
استنارتهم ومسيحتهم لا تمنع بتاتا من بقائهم عبيدا لنا أبداً الدهر . »

تلك قصة محاولة إبطال الرق في العالم الغربي المتحضر وفي الدنيا الجديدة . ثم في تلك الاصفاع التي وصل إليها نفوذ المستعمرين البيض في القارة الافريقية . وهي قصة تختلف إختلافاً كبيراً في جوهرها وتفصيلها عما يحدثنا به المعاصرون عن الرق وحال الرقيق عموماً في مصر والسودان في عهد محمد علي باشا وخلفائه . وآية ذلك ما كتبه الدكتور مادن ممثل جماعة مكافحة الرق البريطانية الذي زار مصر في أيام محمد علي الكبير . فكان مما قاله : —

« أن حالة العبيد في وادي النيل لتفضل حالتهم في أى دولة مسيحية ،
بدرجة كبيرة ، وينسب في العادة حسن معاملة العبيد في البلاد الإسلامية ،
إلى سماحة الدين الإسلامى ذلك أن من تمالىحه الرحمة بالناس ومعاملة ،

« العبيد بالحسن واعتبارهم إخواننا لأسيادهم وإعتبار الأسياد مسؤولين »
« عنهم أمام الله . »

ويؤيد هذا القول ما جاء في خطاب لشقيقة المعاصر الانكليزي
E . W . Limes (لين) صاحب المواقف المشهور عن عادات المصريين
وأخلاقهم وطرق معاشهم أيام محمد علي . وقد زارت هذه السيدة مصر
مع أخيها فقالت : —

« أن كثيرين من انزعوا من أحضان أمهاتهم ورعاية آبائهم وهم »
« صغار يجردون عند من يشترونهم حنان الأم وشفقة الأب ويرفلون في »
« ثياب غالية ويأكلون مأكلاً وطيباً في بيوت أسيادهم ويتمتعون بحرية »
« يتدهش لها الإنسان . »

والواقع أن الرق في السودان أقرب وأدنى إلى الإصلاح منه إلى
العبودية والسبب في ذلك أن العبد الذي يدخل في حوزة سيده لا يلبث حتى
يصبح بعد مدة قصيرة من الموالى لأنه متى تعلم العربية وكيف يتوضأ
ويصلى ويقرأ الفاتحة وينطق بالشهادتين ثبت إسلامه من المعروف
أن الإسلام يحرم استعباد المسلم لاختيه المسلم ولا يفرق بين العربي والعجمي
في ذلك .

ومعظم زنوج السودان يعيشون على جانبي النيل الأبيض ويقطعون
في جهات بحر الغزال وبحر الجبل وبحر الزراف والسوبات والبيبور أحد
روافد النهر الأخير وبحر العرب وصحراء الديوم الواقعة إلى الجنوب

الغربي عن مديرتي دارفور وبحر الغزال وهم من الفرنج والبور والجلالا
والأنواك والدنسكا والشوير والشلك والجاوير الخ .

وكانت الأساليب التي إتبعها محمد علي باشا وخلفاؤه من بعده في
إبطال الرق تهدف إلى القضاء على الفوارق الجنسية وتعمل من أجل خلق
وحدة متماسكة من أبناء وادي النيل ختمها المساواة بين الجميع في الحقوق
والتواجبات فعند أولاً إلى تجنيد الدنسكا والشلك في ملك الجيش المصري
واستخدام منهم أعداداً عديدة في شتى مصالح الحكومة ثم عمل على إعادتهم
إلى بلادهم بعد تهيئتهم وتدريبهم حتى ينشروا ألوية الحضارة بين عشائهم
وهكذا أمكن بعد مضي حوالي ثلاثين سنة أن تألف من هاتين القبيلتين
(الدنسكا والشلك) مديرية فاشودة وقد أنعمت الحكومة المصرية على
(كيكوم) ملك أي دملك الشلك، بالرتبة الثانية واستمر كيكوم مقبياً على
ولائه للحكم المصري حتى قتله المهدي عند ما رافق كيكوم حملة راشد بك
هيمى ضد أنصار المهدي وأتباعه ، وكذلك كان حال قبيلة الدنسكا وهي
نازلة على الضفة الشرقية من النيل الأبيض وإسم مكها (بول كور)
وأكبر أولاده الحاج عيسى بول الذي هرب من ظلم الانجليز وقصد إلى
مصر وبعد أن حضر إلى مصر ذهب إلى مكة لتأدية الحج وعاد بعد تأدية
الفريضة ثم التحق بالوفد السوداني ثملاً لقبائل الجنوب تحت رئاسة
الاستاذ الكبير إسماعيل الأزهرى .

وحضت حالة الشلك والدنسكا فلبس أهلها الملابس وسترُوا عوراتهم
وإشتهروا بصيد التماسح وفرس البحر (بالبادنجا) وهي آلة كهلب

المراكب ولكنها حادة الأطراف وقد تعلموا صناعات عديدة كصناعة
الفخار ونسج الدمور وصهر الحديد الخام وطرقه وصنعه حرايا ومزاريق
وآلات حديدية للزراعة يتجرون بها بين قبائل الزنوج الأخرى وذلك
كله بعد أن كان المرء منهم يقيم على وجهه في الغابات لا يدري أين يذهب.
تصادفه شجرة مثمرة فيأكل من ثمرها وينام تحت ظلها مثل الشلوكاوى
أو الدنكارى في ذلك مثل أبناء القبائل الزنجية الأخرى — وعلاوة على
ذلك فقد نشأوا على عادات مزرية تحط من شأن النوع الانساني : أمثال
ذلك أنه إذا مات أحدهم خلفه أكبر أولاده على زوجاته فإذا ولدت
الزوجة منه ولداً دعاه أخاه لأنه بعد نفسه وكبلاً عن والده المتوفى ولاحق
له في نسله وذريته وهم ينامون على الرماد المتخلف من حريق روث البقر
ويضلون وجوههم بالبول ويمزجون به اللبن والمسلى ويأكلون الميتة
ويشربون الدم والزنجى البدائي أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان وهو
من الناحية الاقتصادية عامل إتلاف وإيذاء وحسب . فلم يكن ينظر
إلى أبعد مما يصل إليه نظره فلا يرى الأشياء إلا كما يراها الطفل ،
فالشمس مخلوق حي . وكذا الرياح والأمطار وغيرها ، والمريض
تسببه الأرواح الشريرة التي تدخل الجسم — جسم المريض وتطرد
الأرواح الطيبة ، والأحلام هي وقائع حقيقية للنفس في تحولها
عند ما يكون الجسم نائماً ، ويظن الزنجى أن خياله في الماء هو جزء منه ،
ولذلك فإن الكثير منهم يخترسون عدداً ما يسرون حذاء النهر من وقوع
ظلمهم على الماء ، خوفاً من أن يصل إليه التماسح ، فيسحبهم إلى النهر عن

طريق الظل وياً كلهم . . . وينظرون إلى أغلب الشرور كأنها فضائل .
فالسرقه والقتل والنهب في نظرهم رفعة ومجد . فقد يقتلون المالك عند
ما يذخر المطر أو يكثر المرض والشيوخ عند ما يشجع الغذاء . وقد
يمجرون الأولاد أو يبيعونهم عند ما يكثرون . فهم لا يعرفون الضمير ،
ولا يعتقدون إلا بقانون أخلاق واحد هو قانون الحق للأقوى .
يحافظون على وجوده بحرب دائمة مع القبائل الأخرى ويعيش من اليد للقم ،
حياته مملوءة بالآخطار والمجازقات ، يصطاد الحيوانات والأسماك ويقايل
ليعيش

وكان الزنوج في حالهم الأولى يخضعون لطائفة الرؤساء والسادة
الذين أبى عليهم جهلهم وحماقتهم إلا أن يعيشوا في اضطراب وفوضى دائماً
لا يعرفون حياة الاستقرار والسكينة بل يشنون على بعضهم بعضاً حروباً
شعواء تهلك بسببها مئات من أبناء قبائلهم ويقدمون أسراهم إلى (الجلابة)
إلى جانب ما يقدمونه إلى هؤلاء من سلع فيأخذون بدلا منها مما لدى
(الجلابة) من البضائع تروق لهم وتسد حاجاتهم كالتمر والسكر والدمور
وقماش الجاوه الأحمر والبقر والحرز والودع والخراب وآلات الحفر
والزراعة وكانت هذه بحارة رابحة تدور على الجلابين خيراً عظيماً . وأسس
هؤلاء في الخرطوم شركات تجارية ربحت أموالاً طائلة . وآنهت الأمر
بهؤلاء الجلابين أن اقتسمت شركائهم مناطق النفوذ الواسعة في أقاليم النيل
الأعلى وبحر الغزان والسوبات خصوصاً ، يشنون فيها الزرائب ويجمعون
فيها من القبل والعبيد وغير ذلك من السلع . ثم تألفت من الزرائب

الكبيرة المشايخ واستأثر الجلابون بكل نفوذ ، وأعتمدوا على البنادق
والبارود في تأييد سلطتهم على الزوج . وكان في أثناء سطوة هؤلاء
الجلابين أن انكشف نفوذ الحكومة حتى صار لا يتعدى قرية اللبسى على
النيل الأبيض جنوباً وصارت الحالة تنذر بضياع كل هذه المناطق من
حكومة الخرطوم وعلى ذلك فقد بدأت الحكومة تعمل لانقاز هذه
الزرائب والمشاريع من الجلابين . وقد صارت الحكومة في تنفيذ هذه
الخطوة سيرا معتدلاً حكماً في أول الأمر بيد أنه ما أن حضر صموئيل
بيكر وشارل جورج غردون حكماً على مديرية خط الاستواء حتى تبدل
الحال ، وركب الاثنان متن الشطط فاعلنا في مطاردة الجلابين ومصادرة
الزرائب والمشاريع وإجلاء أصحابها عنها . فضلاً عن ذلك فقد أبيع
قتل الجلابين وإهدار دمهم وأسرف بيكر وغردون في إتباع سياسة النار
والسيف لإبادة تجار الرقيق حتى انتشر الذعر وعمت البلوى وذاعت هذه
الأخبار المروعة بين أهل الجلابين وذويهم وبما خبر هذه المعارك ،
إلى عصابات السطو وقطاع الطرق أمثال أبو مسيكة وخلافه فانضم
هؤلاء إلى الجلابين يشدون أزهم في هذا النضال المرير فبلغ عدد
المقاتلين حوالي ٥٠ ألف رجل من الشجعان المغامرين ثم عقدوا اتفاقاً
مع سلطنة دارفور وكانت وقتذاك ما تزال دولة مستقلة ولم تدخل بعد
في حوزة الخديوية المصرية يدفعون بمقتضاها مكوساً معلومة لحكومتهم
دارفور ، لقاء السماح لهم بالمرور في بلادها عند سفرهم إلى أمبوط حيث
يبيعون بضائعهم ثم يبتاعون بأثمانها ما يلزمهم من بنادق وبارود وقد

حاولت الحكومة المصرية منعهم فلم تنجح وخشيت أن ينجم من تشددتها في ضرورة إغلاق منافذ تجارتهم في القاهرة وأسيوط أن تتحول هذه التجارة إلى طرابلس ومراكش .

وبما يتحدر بنا ذكره أن الصفاء كان ما بين رؤساء الزوج والجلالين موطداً وبقبل كلا الفريقين أخذ الغدية ، لا تقاذ الأسرة من الموت ومن المعروف أن الزبير باشا افتدى خمسمائة عبداً امرء من ملك التليام كان محكوماً عليهم بالأعدام فخدمهم الزبير ضمن جيشه الذي فتح به دارفور وعند ما أساء الانكليز إلى الزوج وأوسعهم جوراً وعسفاً اجتمع رؤسائهم وقرروا إرسال وفد مؤلف من خمسة من أبناء ملوكهم وخمسة آخرين من الكجور ، أي العلماء ، حتى يذهبوا إلى الخرطوم ومنها إلى مصر فيرفعون هناك ظلامتهم إلى الخديوي على أنه ما وصل هذا الوفد إلى الخرطوم حتى قبض الانكليز عليهم وسجنوهم في سجون الخرطوم فأتوا جميعاً من سوء المعاملة ونجا منهم واحد فقط هو ابن ملك غور غورو وقد لجأ إلى أسرة المرحوم يوسف باشا الشلالى فأكرمت الأسرة وفادته لما كان بين والده الملك وبين الباشا المذكور من متن الصداقة وصادق الود والولاء وقد ظل ابن الملك غور غورو مقبياً في بيت الشلالى إلى وقت سقوط الخرطوم فأكرمه المهدي ورفع منزلته وما برح مقدماً عنده حتى مات المهدي وخلفه عبد الله التعايشى فزاد في إكرامه وأبقاه لديه بمثابة « ممثل » من قبيل ملوك خط الاستواء بفاوضه في كل ما يلائم مصلحة الفريقين :

ومما هو جدير بالذكر وله دلالة البالغة أنه حدث في سنة ١٩٢٧
أن طلبت عصبة الأمم من حكومة السودان بيانا واقيا بعدد الزنوج الذين
حررتهم الحكومة وأولئك الذين كانوا لا يزالون حتى هذا الوقت في
رقبة العبودية والاسترقاق مع شرح حالة كلا الفريقين الاجتماعية
والاقتصادية وشمرت الحكومة عن مساعد الجدد لاعداد هذه البيانات
ولكن سرعان ما تبين أن العبيد الذين لم يحصلوا على أوراق عنقهم وظلوا
يعتبرون في حكم القانون والعرف رقيقا ، وكان يجب كذلك أن تقدم به
البيانات المطلوبة ، قد اندمجوا في أسر اسبادهم وأصبحوا من الموالى
وتعذر على الحكومة أن تصدر لهم أوراق العتق وعلى ذلك فقد عمدت
الحكومة إلى اعتبار ، مرافيت ، الجيش المصرى من الزنوج رقيقا محررا
واستحال الاحصاء المطلوب بيانا باعدادهم وأما هؤلاء ، المرافيت ،
فكانت الحكومة قد أسكنتهم بعد تسريحهم من الجيش ، حلالا ، أى
قرى معينة تعرف بأسم المملكية كغرب الجاش في كسلا وحلال كايوش
في سنار وحلال الديوم في الخرطوم والديوم في جوز رجب . وقد يكون
من المفيد أن نذكر بمناسبة إقامة مرافيت الجيش في الحلال التي اختارها
الحكومة لإقامتهم أن حكومته السودان الحالية ألغت النظم التي اتبعها
حكومة ، التركية ، السابقة ذلك بأن تلك الحكومة كانت تعيد المرافيت
من العساكر إلى قبائلهم الأصباة حتى يشيعوا فيها المعرفة ويستطيع بفضل
اندماجهم في هذه القبائل أن يرشدوا أهلها إلى الهدى والنور وينقل أهل
هذه العشائر عن الجنود ، المرافيت ، ما كبه هؤلاء من خيرة تمسكهم

من السير رويداً رويداً في طريق الحضارة والرقى كما كان يحدث مع أبناء
قبيلتي الدنكة والشلك ولكن حكومة السودان الحالية سرعان ما خالفت
— متعددة — هذا النظام فخرمت عودة أى عسكري ، مرفوت ، إلى
قبيلته بدعوى أنه عاشق في حياته العسكرية ، البونج ، أى ، ناس بحره من
سودانيين ومصريين ففسدت طباعه لدرجة صار يخشى منها على انتشار
السوء والعصا بين أهل قبيلته ، وتلك دعوى باطلة لأن غرض الحكومة
الحقيقية — كما يعرف السودانيون وغيرهم ممن شهدوا وما زالوا يشهدون
هذه الحوادث لم يكن سوى إثارة عوامل الحقد والبغضاء بين أهل البلاد
والفرقة بين مختلف الشعوب السودانية وآية ذلك أنها ألقت من هؤلاء
المرافيت قوات من الملشياء تحت رئاسة الأميرالاي المرحوم السيد بك
عبد الله في شرق السودان والمرحوم الأميرالاي فرج بك أبو زيد في
كوستى وسنار — مهمتهما إذلال للقبائل العربية كقبائل كنانة والخذة
والبقارة كذا المهددوى والحلايقة ونى عامر والبججه عموماً في شرق
السودان تحت ستار إنشاء رقابة فعالة على نشاط العرب محافظة على الأمن
والسلام وفضلاً عن ذلك فقد اتخذت الحكومة من هؤلاء ، المرافيت ،
أداة طليعة تنشر بين الرقيق ، في حوزة القبائل روح التمرد والعصيان
على أن الحكومة لم تشأ أن تكنى بذكر إعداد هؤلاء المرافيت في
الإحصاء المطلوب وكانت أعدادهم محدودة فلجأت إلى وسيلة أخرى لإظهار
مدى تقدمها ونشاطها في هذه الناحية الانسانية — تحرير الرقيق — وعلى
ذلك فقد عمدت إلى استخراج نذاكر حرية لكل الرقيق الذى كان ما يزال

يعيش في كنف أسياده من وقت المهدية فنار الآمال بسبب ذلك واحتجوا
على عمل الحكومة قائلين ، إنه إذا نفذت الحكومة أمر إعطاء نذاكر
الحرية لهؤلاء الرقيق فان دولاب العمل سوف يقف لا محالة ويترتب على
ذلك عدم قدرتنا على دفع الضرائب فتتجدد من ثم تلك المأساة التي كان
من نتائجها ثورة المهدي وعلى ذلك فقد اجتمع المفوضون بمديري مديريهم
واجتمع المديرون بأعضاء مجلس الحاكم العام في الخرطوم وقرر الجميع
إبطال تحرير النذاكر وإبقاء العبيد في حوزة أسيادهم بالقوة إذا دعا الأمر
وبالفعل لم تلبث أن وزعت جنود المجانة والمشاة الراكبة على الحلال
فضربوا ناطقا حرها وأعادوا العبيد إلى أسيادهم تحت اسم «عال زراعة»

كلمة ختامية

وبرى قبل أن نختم هذا الفصل أن نأتي على خلاصة وجيزة لأعمال
الخاصة التي كان يقوم بها الانكليز في إختطاف السود من أفريقيا ونقلهم
عبر البحار ثم بيعهم كالأغنام الحمل للمستعمرين منهم في جزر الهند الباسفيكية
للاستعاضة بهم عن السكان الأصليين من سكان تلك الجزر والذين أيدوا
نتيجة الارهاق في زراعة قصب السكر واللاسك وجوز الهند .

فن الحقائق المعبئة أن الانكليز — والانكليز وحدهم — على حد
قول السيد «رسل» في كتابه (اللون والجنس والامبراطورية) ، كانوا
يختطفون الرقيق الاسود من أفريقيا وينقلونهم على مراكب انكليزية إلى
منقطع العمران في جزر الباسفيكي لبيعهم للمستعمرات الانكليزية . كما

تبايع السلع العادية ، وكانت تجارة مربحة درّت الخيرات الوفيرة على تجار الرقيق من الانكليز والبرتغاليين . واستمرت المراكب الانكليزية في نقل الرقيق الأسود من افريقيا إلى جزر الهند الغربية وشمال أمريكا الانكليزية بمعدل ١٢ر.٠٠٠ عبد في السنة وقد ازداد هذا القدر حتى بلغ ٢٥ر.٠٠٠ سنوياً . وهكذا ظل الحال والانكليز يخطفون الرقيق ويلقونه في كهوف مظلمة من قمور المراكب من أواسط القرن السادس عشر حتى القرن الذي انتهت فيه سنة ١٧٧٦ حيث قدر عددهما اختطف من العبيد ٣,٥٠٠,٠٠٠ هلك خمس هذا العدد أثناء الترحيل وقذف به في البحر طعاماً للأسماك وأيّد الربع نتيجة سوء المعاملة أو نتيجة نوع آخر من أنواع الإبادة كما قيل في البرلمان الانكليزي حينذاك .

وفي سنة ١٨٣٣ أعلن مجلس العموم الكف عن الاسترقاق . ولكن ذوي الشأن من حكام المستعمرات إستخفوا بهذا العطف ونعالموا عن تنفيذه كأنهم كانوا في حاجة إلى رؤية ثورة يقوم بها العبيد توظفهم لرؤية البرلمان الذي كانوا يقفون فوق قوته . وفي النهاية تم إلغاء الاسترقاق وتقرر صرف تعويض قدره ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه لملك العبيد في المكاب ، وجزر الهند الغربية ، ومرتوس ، وقدّر أن هذا المبلغ يعادل نصف ثمن الرقيق المعتوق .

وسرعان ما فطن أسياد الرقيق إلى طريقة فذة للاستعاضة وهي الاستعباد المالي فتسارعوا إلى الاستيلاء على الأراضي الزراعية . وحتى

إذا ما امتلكت الأرض كافة . أعطيت قطع صغيرة للعبيد بالإنجازات
الثقيلة وحل امتلاك الأرض وتأجيرها بالطرق الحديثة محل العبودية
القديمة وهكذا أبطال الإنكليز طريقة امتلاك الرق بالأغصاب واستمضوا
عنها ورق إختبارى أقوى من الرق القديم دعامة وأكثر اشتمالا على عدد
المستعبدين .

وإذا عثيت أيها القارىء الكريم بتتبع أطوار السود في جميعا وجزر
الباسفيكى وأمريكا لوجدت أقواما لا قوا من العسف والاضطهاد ما لم
يكن له مثيل في أسيا أو أفريقيا . لحكايتهم مترعه بشتى مناحى العواطف:
من بأس إلى يقين ، ومن جهاد إلى إستسلام ، ومن شجاعة إلى استكانة ،
ومن تشاؤم إلى تفاؤل . ومن يقين وصبر . إلى شك وجزع وامل ، فهم
قوم قارموا أشد صنوف اليأس ، وأقصى مصاعب العبودية ، قوم مرت
عليهم من الدهر حقبات سود قاحلة موحشة ، لم يكن لهم من سلوى سوى
حفلات المآتم : فهم يودعون موتاهم ويستلمون مصافرهم ويصفون فيها
رجائهم بالحرية التى تنتظرهم في أوطانهم بعد المات !!! فاذا نأح الزنجى
شرح لك كيف عانى في كنف أقوام يعض البشرة شقر الوجوه . هو
عنهم الغريب المنبوذ . عرائد ومشارب تختلف في كل ناحية عن عاداته .
ثم يصف مأساه وآماله ، وصبره وإيمانه ، وثقته ويقينه ، وحرية مستقبله
في دار الخلد !!! هناك يجتمع بأمه وكوخه وثوره وأبقاره — وهناك
يمسك ذنب ثوره المختار الذى ولد معه في يوم واحد ويطلقه في الغابة

ويغنى وراؤه ثم يقبله من غرته ويقول له : أنت أخى وقرينى ونفسى
مزاجى وكفى ،

وتجلى خصائص الزنجى في تعبيراته . عند ما يجلس القرفصاء بين
الباكين أثناء رقصات الموت وينوح قائلا : لقد انهكنى العذاب والتعذيب
يا أمى ! انهكنى حتى الموت . ولكن الموت ما كان أضعف منى ساعة ، مثله
في هذه الساعة ، فانا ، ها أنا ذا اليوم بين ذراعيك . وها أنت ذا بين
ذراعى . أعناقنا عنق الراح بالماء . والنور للعين . والحلم للنام . فما
أحب هذا اليوم إلى قلبى وأشهام ، لا يهولك يا أمى عيام فى مفاصلى .
وضباب فى عبنى ، وذهول على وجهى . فما أذكر وهل الزمان يذكر .
كم فلك قطعت . وكم من الستين طويت قبل أن أدرك هذا اليوم . يوم
لقاتنا ... وإلى وإن غاب عنى الكثير مما كان منى ومعنى ، ما نسيت يوم
أدركنى فيه الرجل وهو يطاردنى وكان ممطبا جواردا له أربعة أرجل يساير
به الريح ، بينما كنت فى بطن الوادى . والجوع قد هد حبلى وكاد يهولف
أمعائى . فلما أعيانى الطراد . تلكأت . فما كان من الرجل الأبيض إلا أن
سدد بندقيته إلى ساقى وصاح : خذها يا أبيض الناس وعدو الكنيسة .
فسقطت ولما إقرب منى طعنته بحربى فى ساقه أيضاً ، وسال منه الدم ،
كما سال منى الدم ، ولكن أه يا أمامه بندقية الرجل الأبيض فثاكة تقرب
له البعيد ، وتطيع له العاصى . وما مثل حربى بالنسبة لبندقته إلا كمثل
البيضة والحجر كان مع الرجل الأبيض رجل أبيض آخر . نعوذنا
على اكتافى ثم أحضرت ولا أدرى كيف أحضرت . وعشت ولا أدرى

كيف عشت فوق أرض ليست بأرضي ، وتحت سماء ليست بسماي .
ومهما أصابني من الشقاء فلا زالت تلك الساعة — ساعة إخطائي ، حية
في فكري ، أما في قلبي ففكره للانسكيز قتال ، وعداوة لا تنام .. فهو
سبب شقائي وبعدي وبلائي ، وعذابي وتعذبي .

كلما مرضت كلما بدت منابت الأمل في نفسي ، وأخذ خيال السعادة
يحيطني ، فأرى بعين البصيرة وجهك الصبوح . وعينيك الصافيتين ،
وأراني أقضم من خيرات بلادى كالجراد . ولم يكن شيء في الوجود يعادل
مسرتي حينما أحضر مواكب الموت ، فأنوح وأرتاح في البكاء والنحيب .
ماذا يضير الأسود لو انتحر ومات . إن طريق البغضاء كثيف ، مملوء
بالعظم الرميم والجماجم الممشحة ، وعلى قارعة الطريق أشلاء هي فريسة
الكره والحقد — كره الأبيض للأسود ، والأسود للأبيض ، لن نفقر
لأولئك الذين أساءوا إلينا وأذاقونا مر العذاب . . . ورموا بنا بعيداً —
بعيداً عن الأوطان ونبدونا نبذ الذباب ثم يلتفت للمعزيين ويقول :
إخوان الشقاء : دعوا خيالكم يمرح حيث شاء ، ويدور معتبلاً الآفاق
مع العواصف ، ويتدفق مع المياه الجارية ، ويصفر مع الريح العاتية ،
دعوه يتحد مع الأغصان المتمايلة ، ويفتحم الغابات الكثيفة . أتركوه
يتلألأ مع قوس قزح ، ويتلاشى مع الغيوم السارية . لتغنى نفوسكم
وتتدفق الأبدية خلال أرواحكم ، لكي يغمركم رضى الله :

الفضل الخامس

سيرة الزبير باشا رحمه

« إنشأ الزبير باشا ، شامسته لتجارة ، مشاركته لأبي
عموري المصري ، فتح بحر الغزال ودلوفور - استمداء
الحديدي له ، حودته السودان - شجاعته المتأثرة »

الزبير باشا رحمه من قبيلة الخبيباب ، نسبه إلى جميع العباسي ،
وهي قبيلة مشهورة بالشجاعة والكرم والإقدام شأنها شأن عرب السودان
الذين يزوا في هذه الصفات في سائر الاقوام . وللزبير مكانة كبيرة في تاريخ
السودان الحديث بدأ حياته بالتجارة ثم سافر في سنة ١٨٥٦ مع ابن عمه
إلى بحر الغزال في خدمة علي أبو عموري وكان من تجار أصحاب المزارع
وأصله من مجمع حمادي وكان كثير من التجار السودانيين والمصريين
يتملكون الزرائب في هذه الأصفاع ، وأشتهر الزبير بالشجاعة والإقدام
بفضل دفاعه عن زريبة علي أبو عموري فهابه الأهل ونمتع بسمعة عظيمة
فما لبث حتى أنشأ لنفسه تجارة ناجحة درت عليه أرباحاً طائلة فزاد طموحه
وتوغل في البلاد حتى وصل إلى بلاد لم يصلها غيره من التجار ثم قصد
إلى بلاد النمام حيث تزوج من ابنة سلطان النمام وأسمه ، تكه ، فارتفع

شأنه وازدهرت تجارته وابتاع من ملك النمام الخمائة من الشبان الأشداء
دربهم على حمل السلاح وكان هؤلاء الشبان من الذين حكم عليهم بالموت
ومن المتوقع أن يذبحهم القوم وياً كلون لحومهم جرباً على عادة أهل البلاد .
غير أن ملك النمام سرعان ما صار يخشى من شدة بأس الزبير وازدياد
سلطوته فاضطر الزبير إلى الخروج إلى ملك آخر يدعى « دويه » كان
عدواً للملك « تكه » فأرسل حومه رجالاً للفكك به في الطريق فتغلب
عليهم الزبير وأعاد « تكه » الكرة فجهز جيشاً كبيراً لقتال « دويه »
فقر « دويه » وقومه وأرغم الزبير على الانسحاب إلى بلاد « قولو » وملكها
يو من « عدوه » شكو » وكان هذا الملك الأخير قد قتل أخا للزبير قبل ذلك
فقامت الحرب بينهما وكانت العلية في النهاية للزبير فقتل أولاً عدوه شكو
وبعد معارك أخرى مع ابن « عدوه » شكو « الذي خلف أبيه واحتل
« بابة » عاصمة القولو واتخذها عاصمة لملكه وسماها « ديم الزبير » ثم
عاهد عرب الرزيقات على فتح طريق التجارة بين بحر الغزال وكرديان .

وفي سنة ١٨٦٩ وصل إلى بحر الغزال الحاج محمد البلالى المسمى
ومعه مائتين من الجنود السودانيين بقيادة محمد افندي منيب وأربعمائة
من الباشزق وستائة من الخطربة فقاتلهم الزبير وانتصر عليهم وكان
حكماء السودان وقت ذلك جمعوا بأشاً مظهر .

ولما رأى ملك النمام اتساع ملك الزبير أرسل بهدوه ويطلب منه
ترك الملك والسلطان ويعود إلى الاشتغال بالتجارة بحجة أنه جلالى فأبى

الزبير وعلى ذلك فقد اشتملت الحرب بينهما وانتهى الأمر بانتصار
الزبير فضم إلى ملكه بلاد النمام وكان الرزيقات في هذه الاثناء قد
نقضوا العهد وقطعوا طريق شكاء وهو طريق التجارة بين ممتلكات الزبير
في بحر الغزال وبين كردفان والسودان الأوسط فطلب الزبير في عام
١٨٧٣ من ابراهيم سلطان دارفور وكان الرزيقات يدبون له بالطاعة
أن يعاونه على اخضاعهم فبعث إليه برسالة اختتمها بقوله : ونحن نتقدم
إليكم بهذا الكتاب واتقن أنكم متى علمتم حال هؤلاء العربان — الطغاة
الذين خرجوا عن طاعة سلطنتكم منذ ثلاثين سنة ونيف تنجدونا بسرية
من جيشكم حتى إذا ما تم لنا إذلالهم نعود فنسوى الأمر بيلتنا فإما أن
تتركهم لنا لنحكمهم بالقسط والعدل وإما أن تتركهم لكم فتفتحون
الطريق وتقدمون لنا النفقات التي نيدلها على عساكرنا في الحملة عليهم .
ولما لم يحب السلطان ابراهيم على هذا الكتاب واستمر الرزيقات على
فعلهم . فقد حاربهم الزبير وهزمهم شر هزيمة ، وأسر فقيهم عبد الله
النمايشي وصمم على قتله ولم ينج عبد الله من القتل إلا بفضل وساطة المشايخ
الذين متعوا الزبير من قتله وعبد الله هذا هو الذي صار فيما بعد خليفة
للمهدى وحكم السودان سنة عشر سنة وهو رجل شجاع وجريء وطموح
ومغامر ومكافح ومشهور بالدهاء ولولاه لما حدث للمهدى من ظهور
ولما كانت المهديّة .

وترتب على انتصار الزبير وهزيمة الرزيقات ثم دخوله شكاء أن

توترت العلاقات بينه وبين السلطان ابراهيم لأن دارفور كانت تعد هذه الجهات من أملاكها وعول ابراهيم على الانتقام من هذه المذبحة وطرد الزبير من شكا . فبادر الزبير بتقديم كل البلاد التي فتحها في بحر الغزال وشكا إلى الحكومة الخديوية المصرية ، وطلب من الحكمدار اسماعيل أيوب باشا أن يرسل من قبله حاكما عليها بإسم خديوى مصر . فأُنعِم عليه الخديوى برتبة البكورية وعينه حاكما على بحر الغزال وتم الاتفاق بعد ذلك على فتح دارفور ذاتها على أن يسير اسماعيل أيوب بجيشه على هذه السلطنة جهة الشرق بينما يزحف الزبير عليها بجند من جهة الجنوب . وسقطت دارفور في قبضة الحكومة المصرية وأنعم على الزبير برتبة الباشوية بيد أن تدخل الزبير في شئون الفتوح الجديدة لم يلبث أن غيّر عليه اسماعيل أيوب باشا ثم نظائرت الاشاعات بأن الزبير كان يهدف إلى الاستقلال بالبلاد التي عين حاكما عليها فوجد أن من الخير له أن يحضر إلى مصر لمقابلة الخديوى شخصيا حتى يعرض على سموه حقيقة الحال ، — على حد قول الزبير والنظر معه ومع رجال حكومته في تنظيم البلاد التي تم فتحها على يده والبلاد التي يمكن إلحاقها بحكومة الخديوى في المستقبل فجاء تلغراف من مصر بالموافقة على سفره .

ومع ذلك فقد نصحه رجاله بعدم السفر إلى مصر قائلين : إذا أنت سافرت إلى مصر حجزوك هناك ومنعوك من المجيء ، فلم يسمع لنصيحهم وقام من القاهرة بين مظاهر الإجلال والاكرام فنصبت له أقواس النصر في كل بلد نزل فيها من القاهرة إلى الخرطوم ومن الخرطوم إلى القاهرة

واستقبل بالحفاوة والتمليل في كل مكان وأطلقت له المدافع في الخرطوم
وفي القاهرة لوصفه من الغزاة الفاتحين ، وقد حدث ما كان يتوقعه أهله
ورجاله فاحتجزه الحبس في مصر تحت ضغط الإنجليز .

وفي سنة ١٨٧٧ رافق الجيش المصري الذي أرسله الخديوي اسماعيل
للمجدة الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا وأظهر في الميدان من ضروب
الشجاعة ما كان موضع التقدير والإعجاب وقد ظل الزبير على ولايته
للحكومة على الرغم من قتل ابنه سليمان غدرا في سنة ١٨٧٩ على يد
رجس ، الإبطالي على نحو ما تقدم بوابه .

وفي سنة ١٨٨٣ انتدب لقتال عثمان دقه في طوكر فشمع الزبير عن
عن ساعد الجدو جمع آلا بأ من العساكر في مصر ولكنه عدل عن الذهاب
في آخر الأمر لأنه أرى أن يكون تحت إمرة باكر باشا الإنكليزي .
وفي سنة ١٨٨٤ استنجد به غردون لاستلام السودان على الرغم من أن
الإنكليز كانوا قد أهانوه بوصفه ، نخاسا ، وشتعوا به وفضلا عن ذلك
فقد عارض الرأي العام الإنكليزي معارضة شديدة في ذهابه إلى السودان
بسبب تلك الحملة الشعواء التي أثارها ضده جمعية لإبطال الرق في لندن ،
وفي سنة ١٨٨٥ نفي الزبير إلى جبل طارق بتهمة أنه كان يتفاوض سرا
مع المهدي فظل هناك ثلاثين شهرا ثم أفرج عنه وعينت له الحكومة
المصرية رانياً شهربا قدره ٢٨٩ جنبها يتناولته حتى وفاته وينقل لذريته
من بعده .

وبعد استرجاع السودان أذن الانكاز للزبير باشا بالعودة إليه
فيأمر أحمد أفندي حمدي سيف النصر ، الفريق أحمد حمدي سيف النصر
باشا ، باستضافته في منزله الخاص وهو قصر عظيم بجدة أبو روف على
البحر الأعظم في أم درمان قصر الزبير باشا سروراً عظيماً بهذا الأكرام
وكان حمدي أفندي وقتذاك مأموراً لمدينة أم درمان وله النفوذ والسلطان
وكان أهل السودان في ذلك الحين أشبه ما يكونون بالمرضى الذي يجامون
الخطر وبدأ يسترد عافيته ويبدأ ويبدأ وذلك بعد ما نزل بهم من محن
وشروء على يد حكومة الدراويش فقدم حمدي أفندي الممكن والمستحيل
من الخدمات لهذا مكانة الزبير باشا في أعين قومه مما حباها إلى قلوب
السودانيين وجعل السنتهم تلهج بالشكر والثناء عليه حتى أن الزبير باشا
نفسه خاطبه ذات مرة ، بـرجل ، سوداني مازال القوم هناك يرددونه
إلى يومنا هذا في شتى المناسبات :

• أنت يا حمدي رفيق وتقام كفي ،
• ودرجة عصاي وبلاي وسبي ،
• مطبورة غلاي مونة خرابي وصبي ،
• سارعيوني عندناي وجاري وصبي ،

والزبير باشا رجل رفيق الفؤاد ، كثير الوداد ، محب للخير ، أخ
للقوي وأخ للضعيف ، صاحب للوضع وصاحب للشريف ، فهو للسيف
والضعيف ، عصا وكراباج ، على حد قول أهل السودان ، أي رجل
حرب وكرم وضرف وشده وكان الزبير باشا يميل إلى المرح والفكاهة
والى جانب ما عرف عنه من الشدة والصرامة وقوة البأس

سأله حمدي افندي سيف النصر ذات مرة عما كان يتناهبه من هموم وهو
أسير في جبل طارق فأجابه : كنت ، أدوبى ، أى أغنى بغناء السودان
وأخاطب أعضاء جسمى لأن الحراس لا يفهمون لغتى وأنا أجهل لغتهم
أيضا فكنت أقول :

• كم يا الساق أخلفناك قوى بشارية ،

• وكم يا اليد جلدنا بك جنى الوحشية ،

• وكم يا الفم أطعمناك مراره وشربة ،

• ستين تموت أصل العمر طاربه .

وقيل أن الزبير باشا دخل مرة على مدير الخرطوم ، استأذن باشا ،
فلم يحفل بقدمه كما يجب فما كان من الزبير إلا أنه نهزه قائلا لافنى لست
بالرجل الذى لا تعيره أهمية لقد فتحت بلادا مساحتها أضعاف أضعاف
جزيرتكم فكيف لا تحفل بى وتقدم لى ما يجب من الاحترام ، فأدرك
استأذنى خطأه وقدم اعتذاره وقد عرف الزبير بالشجاعة والمروءة إلى
جانب ما عرف عنه من الشدة والصرامة وقوة اليأس والجرأة والاقدام .
فالشجاعة هى التى دفعته إلى مجاهرى ما وراء المستنقعات وجعلته يكتشف
مدبرية بحر الغزال ويمتلكها ، والشجاعة هى التى دفعته لركوب الأخطار فى
محاربة الرزيقات أشد القبائل بأسا فى الغرب ثم افتتاح سلطنة دار فور .
وكان للزبير باشا سيف ثمين يمتزبه ويستطحبه فى غدواته وروحانياته فلما
مات وقع هذا السيف فى يد المرحوم الشريف يوسف الهندى ، فاعتز به

وحفظه عنده كذا ذكر ثمين لا يقدر بمال لما كان لصاحبه الزبير من المنزلة
الممتازة والقدر العظيم وكان الشريف يوسف الهندي أكبر الزعماء مقاماً
عندما أعيد فتح السودان وقد ظل بقيم في سنار حتى سنة ١٩٠٨ ولكن
الانكليز بدأوا يشكون في إخلاصه بعد واقعة الكفية بسبب إيوائه الغلول
انصار واد حبه به عندما كان في سنار فدعوه للإقامة في الخرطوم ولولا
مكاته الروحية التي تبلغ حد التقديس في نفوس انصاره ومريديه من
قبائل العرب لمثلت به الحكومة كما ضيقت الخناق على غيره من الزعماء
والفقهاء الدينيين امثال الشيخ محمد التوم طلحه وغيره من الذين لجأوا إلى
مكة وماتوا بها .

وكان من اظهر صفات الزبير بإشارحه، السكرم والنجدة وحب الجاه
والسلطة فوصفه كتاب الافرنج بأنه رجل تجارة وسياسة وحرب . وقال
بعضهم بأنه خلق لحكم الناس وقد اشتهر بالسكرم منذ كان ملكاً في بحر
الغزال حيث يقصده الكثيرون من اهل البيوتات السودانية الذين اخنى
عليهم الدهر فيعمل على تيسير الحال لهم وازالة الضيق والكرب عنهم وقد
تردد في بعض المجالس المبالغ التي انجد فيها قومه فبلغ مجموعها نحو من مائتي
الف جنيه وبقيت داره مفتوحة يقصدها كل من خانه الدهر او عيس
الحظ في وجهه حتى انتقل الى رحمة الله سنة ١٩١٤ ودفن في الجبلي . ومن
امو لم حفا بل من الخطأ الفاحش هو أن لا ننظر الى الزبير باشا نظرة كبار
وتمجيد مع أن تاريخ حياته مفعم بالبطولة وبأحدا لو عنيت الشيبية
المصرية والسودانية بشأن هذا الرجل العظيم واظهار مدفته بما يليق به
من الكرامة والتقدير .

الفصل السادس

سيرة الامام محمد احمد المهدي

نشأة المهدي . مدينة طاريفة السانية وتبعده اتصاله بالشيخ
المرشي . اتصاله بهدائه النماذج به . نبوالة في البلاد . اتصاله
بتجار الرقيق وتاييد هؤلاء لدعوته . ادعاء المهدي

ولد محمد احمد المهدي في جزيرة ضرار من أعمال دنجله ونقله
حوالي عام سنة ١٨٤٣ واسم أبيه وعبد الله ، وأمه زينب ، وهو من ذرية
رجل صالح يسمى الحاج الشريف اشتهر بالتقوى وينصل نسبه إلى
جد له اسمه ونجم الدين ، وهو جد الكنوز وينسب إلى أهل البيت .
وسيدى نجم الدين هذا مدفون في القاهرة في حي يسمى باسمه يقع بين
سبيل أم عباس بالعباسية وباب النصر ، وله قبة فوق ضريحه ومسجد
وأماكن موقوفة عليه يدخل في نطاقها مدرسة الطائفة الاسرائيلية ومصنع
الطرايش ومصلة النقل الميكانيكي ، جراح الحكومة ، وفاريفة الألوان
المصرية للبيب نسيم الكيمائي المعروف ومطبعة الحلبي ومصانع أخرى
وعدة منازل للسكنى وأرض فضاء وكل ذلك أوقف يرعاها الآن عبدالرؤف
افندي عرفات الحسيني بموجب ورائته بهذه الاوقاف وتعيينه
ناظرا عليها .

ومحمد احمد المهدي قبل ادعائه المهدي كان طالب علم انخرط في عداد تلاميذ الشيخ محمد شريف ولكنه عاب في استاذته وتناول عليه فالتحق الاستاذ ذلك ذريعة لمحو اسمه من بين اتباع الطريقة السمانية وقال له الاستاذ محمد شريف اذهب فقد صدق فيك المثل القائل : الدنقلاوى شيطان مجلد بجمله لإنسان .

وكان الامام محمد احمد يحب الطريقة السمانية المذكورة وأصولها وكان له خلفاء وتلاميذ يلقنون أورادها ويقرؤون روايتها فلم يكن ترك هذه الطريقة واتباع غيرها أمراً يسهل عليه قبله فتذلل لأستاذه محمد شريف وطلب منه العفو مراراً فلم يجبه إلى طلبه .

وكان في : الحلويين ، بين المسلمين والكاملين — على النبل الأذرق وشيخ من مشايخ هذه الطريقة يدعى : الشيخ القرشي ، الذي أخذ الطريقة السمانية رأساً من مؤسسيها : الشيخ الطيب ، وكان بينه وبين الشيخ محمد شريف مناظرة شديدة . فلما رأى محمد احمد من أستاذة هذا الالباء التجأ إلى : الشيخ القرشي . وجدد عليه العهد بهذه الطريقة .

أذاع الامام محمد احمد أنه انفصل عن شيخه : محمد شريف ، لما رآه من مخالفة الشريعة والسنة وكان محمد احمد قد احتضر لسكاه غاراً في جزيرة أبا أقلم فيه وقضى وقته في الصلاة والصيام وقراءة القرآن والتهجد والمناجاة والبكاء في الأسحار والتضرع إلى سر الأسرار والتوسل إلى الله أن يهدي القلوب إلى اكتشاف الموعود ويصل إلى رتبة الحبيب المحبوب ومطالعة أنوار المقصود .

فاشتهر بالزهد والتقشف والغيرة انه بذية وانتشر صيته في السودان
فأخذ الناس يقدون إليه من الجهات الأربع وكان المسافرون في النيل
الابيض يقفون بالمراكب والوابورات — خصوصا الجلابة أي
(ناس بحاره) فيقدمون إليه الهدايا ويطلبون منه البركة فيباركهم ويوزع
الهدايا والعطايا على الفقراء زهدا منه وتقشفا .

وفي سنة ١٨٨١ توفي الشيخ القرشي ، فخرج هو وأتباعه وتلاميذه
إلى الحلوبين وبنى فوق قبر الشيخ قبة — فالضم إليه أتباع القرشي
واخذوه بعد وفاة شيخهم شيخا عليهم فقوبت شوكته وكثر أنصاره وقد
بالغوا في محبته وتعظيمه حتى قالوا في كتب طريقته أن المهدي المنتظر
سيكون منهم وأن الشيخ القرشي قبل وفاته أومأ بها إلى محمد احمد .

وكان من عادة الامام محمد احمد أن يخرج من جزيرته (أبا) سائحا
في بعض أصحابه لإرشاد الناس حتى يقلعوا عن المعاصي وإنذارهم بما
سيلقونه من عذاب إذا هم استمروا على مخالفة تعاليم الاسلام . واستطاع
محمد احمد أن يحول في أنحاء البلاد من دقله شمالا إلى سنار جنوبا ومن
النيل الأزرق شرقا إلى كردفان غربا وكان أهم ما استرعى نظره ماشده
بعينه من مودة الناس على الحكومة وحسنهم إلى الماضي . ماضيهم
القريب — قبل أن يقد عليهم صموئيل بيكر وأتباعه وغردون ومساعدوه
وقبل أن يتحكم فيهم أعداء الدين — كما يقولون — وقبل أن يصادروهم
في أخص خصائصهم الدنيوية والدينية وكان محمد احمد يواسي أهل القتلى
من الجلايين ويترحم على الموقى من ذوى قرباهم ويحضر مناجاتهم
ويعدهم بالفرج القريب والخلاص من الكرب العظيم والعذاب المقيم —

ولما كان الناس بدورهم يمتنون النفس بظهور المهدي الموعود وكانوا كلما
رأوا رجلاً بفضله عقلاً ودراية غيوراً على الدين وأهله ظنوه المهدي .
فإنهم سرعان ما صاروا يلهجون بأن الفقيه محمد أحمد هو نفسه المهدي
المنتظر . وأما محمد أحمد فقد رأى فيما كان عليه الأهلون من استعداد لقبول
دعوى المهديّة وتلك الحال التي وصل إليها الإسلام من الضعف والوهن
حتى صار الكفار يستعبدون المسلمين ويصادرون أموالهم وأرزاقهم
تحت ستار أبطال الرق ومكافحة النخاسة . تقول أنه رأى في ذلك كله
مشجعاً له على الجهر بدعوته . علاوة على ذلك فقد كانت نفسه مفطورة
على التشيع للذهب الشيعة الذي يعتقد بغيبية الإمام الحسن العسكري فاندفع
بحكم الضرورة والطبع بنشر دعوته وبهوى الأذهان لقبول المهديّة ونأييدها
عند ظهورها وكان في هذه الأثناء أن وفد عليه رجل من الغرب هو
عبد الله النعاشي كانت له اليد الطولى في ظهور المهديّة وانتشارها ذلك
بأن النعاشي كان أول من ناصر محمد أحمد وأيد دعواه وأزره وقواه
برجاله الأشداء وبدهائه وسعة حيلته ولولا عبد الله النعاشي لما قامت
للمهديّة قائمة ولما استمرت بعد وفاة المهدي نفسه سنة عشر سنة . قيل أن
عبد الله النعاشي عندما رأى محمد أحمد لأول مرة وقع مغشياً عليه ولم
يفق من غيبته إلا بعد ساعة أو أكثر . ولما أفاق نادى فنظر إلى الإمام
محمد أحمد وتقدم لمصاحته فأغشى عليه مرة ثانية ثم أفاق وتقدم إلى محمد أحمد
حبوا على الأرض فأخذ يده وشرع يقبلها وهو يرتعد ويكي . فقال له
محمد أحمد : « من أنت يا رجل وما شأنك ؟ » قال يا سيدي

أنا عبد الله بن محمد تورشين من قبيلة النعايشة البقارة (رعاة البقر) وقد سمعت بصلاحك في بلاد الغرب فجت لأخذ الطريقة عنك . وكان لي أب صالح — من أهل الكشف وقد قال لي قبل وفاته إنك ستقابل المهدي المنتظر وتكون وزيره وممكن مره وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته . فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي بعينها فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله وخليفة رسوله ومن شدة الفرح الذي شملني وأصابني الذي رأيته .

فاستبشر محمد احمد بهذا القول لأنه أصاب هوى في نفسه واتفق مع ما كان بضمرة . فبايع عبد الله النعايش وقربه إليه وجد في بناء قبة الشيخ القرشي فأنتمها وعاد بتلاميذه ومعهم عبد الله النعايشي إلى جزيرة « أبا » .

وما أن عاد إلى « أبا » حتى شرع في دعوة الناس سرا بإرسال الكتب إليهم وذلك في ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ وكان أول من خاطب في ذلك الأشخاص من الفقهاء والأعيان ومشايخ الطرق والقبائل فأفصح عن دعواه وخرج بها وصار يحثهم على القيام معه لنصرة الدين والحجرة من أما كنهم الانضمام إليه ومبايعته على الجهاد في سبيل الله قائلا : —

« إنه قد رأى النبي (صلعم) بعيني رأسه بقضة فاجلسه على كرسيه .
« وقبض سيفه وغسل قلبه بيده وملاه إيمانا وحكمة ومعارف مشيئة وأخبره .
« بأنه الخليفة الأكبر والمهدي المنتظر وأن من شك في مهاديته فقد كفر .
« ومن حاربه خذل في الدارين .

وقال في بعض كتبه

« إني لا أعلم بهذا الأمر حتى هبهم عليّ من الله ورسوله من غير »
« استحقاق فأمره مطاع وهو يفعل ما يشاء ويختار وقد أمرني سيد »
« الوجود (صلعم) بتكاثف جميع المسلمين ودعوتهم إلى الهجرة »
« معنا إلى محل يكون فيه قوام الدين وإصلاح أمر الدارين » فلا بد أن »
« تحضروا معنا في رمضان ولا تتخلقوا فيحل بكم الحشران »
« وجاء في بعض كتبه : -

« لقد خلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسية مرارا »
« بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والحضر عليه السلام وأيدني الله »
« تعالى بالملائكة المقربين والأولياء الأحياء والميتين من عهد آدم إلى زماننا »
« هذا وكذلك المؤمنون من الجن » وفي ساعة الحرب يحضر معهم أمام »
« جيش سيد الوجود (صلعم) بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الأربعة »
« والأقطاب والحضر عليه السلام وأعطاني سيف النصر من حضرة »
« (صلعم) وأعلنت أن لا ينصر عليّ معه أحد ولو كان الثقلين الإنس »
« والجن » ثم أخبرني سيد الوجود (صلعم) بأن الله جعل لك علي »
« المهديّة علامة وهي الخال على خدى الأيمن وكذلك جعل لي علامة »
« أخرى تخرج رايه من نور وتكون معي في حالة الحرب يحملها عزرائيل »
« عليه السلام فيثبت الله بها أصحابي » وينزل الرعب في قلوب أعدائي فلا »
« يلتقاني أحد بعداوة إلا خذله الله » الخ الخ الخ »

ولما رأى محمد احمد أن الناس على استعداد لقبول دعوته أعلن أنه
المهدي المنتظر وأعلن الجهاد وصعد في دعوته وصار لا يثنيه عن عزيمته
وعيد ولا يخيفه تهديد .

ويعتقد أهل السودان وفقهاؤهم أن محمد احمد ما كان يقدم على إعلان
أنه المهدي المنتظر لولا وثوقه من موازنة الجلايين له وانضمامهم إليه لأن
الجلايين كما هو معلوم كانوا أشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار وهم
مغامرون وأهل كفاح وكان شعارهم عند الخروج إلى الغزوة لصيد الرقيق
وجمع سن الفيلة وريش النعام والصمغ وما إلى ذلك . ياموت أحمر يذهب
أحمر ، فيخرج الواحد منهم وفي حاشيته من الاتباع والعمال مئات الألوف
من الرجال الشجعان الذين لا يشتهون الموت على الفراش . كالغويين .
(أى النساء) وكان هؤلاء يقومون لقيام رئيسهم المعروف . بالمشجل ،
ويقعدون لعوده :

وكان من عادة الجلايين أن يبروا بحزيرة . أبا ، وهم في طريقهم إلى
بلاد الزنوج مقر الفقيه محمد احمد وكان بهذه الجزيرة (منجرة) لصنع
المراكب وتعميرها فيضطروه إلى الإقامة بالجزيرة أياما عدة يتجهزون
خلالها فينتهزون هذه الفرصة ويقدمون للفقيه (الأكراميات) وبطلون
منه الدعوات فيباركهم ويندرون له التذور فيقبلها ويوزعها على الفقراء .
من الخير أن أى طلبة العلم وكان محمد احمد عند خروجه من الجزيرة يقوم
بنوديعهم في حفل ديني كبير فبؤمهم في صلاة تقليديه ثم ينهل إلى الله

• رازق النسر في السماء والحوث في بطن الماء أن ينظر إليهم بعين عنايته •
• ويسقيهم من صوب نعمته ويظلم جناح رعايته وأن يكون لهم في بلاد •
• القرية وديار الوثنيين حرزا متينا وركنا دينا ودارا وطنيا وأن يرمى •
• الوثنيين بالوثنيين ويخرجهم سالمين حتى يعودوا الى ذويهم غانمين ••

• وكان محمد احمد على اتصال بمجريات الحوادث في مصر وما سبق •
• منها على وجه وجه الخصوص فيام ثورة احمد عرابي وشجعت هذه •
• الأحداث على المضي في دعواته ثم لم تلبث يد القدر الساحرة أن غيرت حياته •
• فاعظم شأنه واستفحل خطره وقد لازمه التوفيق في جميع خطواته فإنه •
• ما شهد موقعة إلا انتصر فيها ولا حاصر مدينة إلا افتحمها فجاء هذا التوفيق •
• دليلا ساحما على تعدد كراماته وآمن الناس برسائله وصاروا يتلقون •
• تعاليمه كما يتلقى الناس الوحي في عصر الانبياء •

نأكد لدى المهدي بأنه أصبح المالك المتصرف في شئون السودان •
فأعلن بأنه سيفتح الأمصار ويخضع الملوك والسلاطين وأنه لن يقضي حتى •
يفتح الحرمين وبيت المقدس وينزل إلى الكوفة ثم يموت هناك بيد أن •
المرض لم يلبث أن دهمه فأصابته حمى (التيفوس) وكانت إصابته شديدة •
لم يشج منها فتوفي في يوم ٢١ يونيه سنة ١٨٨٥ ودفن حيث مات وبني •
له القراويش قبة أطلقوا عليها اسم قبة المهدي وأمروا الناس بزيارتها •
ومما هو جدير بالملاحظة والذكريات أن هذه القبة كانت المؤسسة الوحيدة •
التي أنشأها القراويش خلال السنوات الطويلة التي تمتعت فيها (المهدية) •
بالسلطان المطلق في السودان . وعند استرداد السودان أطلق كنه

قنابل مدافعه على هذه القبة فهدمها ، ثم أباد رفاة هذا المسلم الذي جاهد في
الله حق الجهاد . وقد ظلت القبة مهدمة مهجورة حتى سنة ١٩٤٧ . ثم
أوحى الحكومة إلى السيد عبد الرحمن باشا المهدي ، بحمله بتعميرها
والاحتفال بتجديدها لكي تكون مزارا يحج إليه المريدون والاتباع .
وبما يستحق الملاحظة بل ويحز في القلب ويؤلم نفس كل مسلم غيور
ما تدبعه الجرائد الإنكليزية — من وقت لآخر من أحاديث مؤيدة
بالصور الفوتوغرافية ومنسوبة إلى السيد عبد الرحمن المهدي باشا نجل
الإمام محمد أحمد المهدي صاحب السيرة أفرها ما جاء بمجلة News Weekly
المؤرخة في ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ تحت عنوان The Black Knight
أي الفارس من الأسود مظهره أياه في ثوب من الاستنكار للسنين التي جري
عليها والده في محاربة الإنجليز أعداء الدين ومصادفته طولاء الأعداء .
جالسا على مقعد الخشب وبجانبه صورة فوتوغرافية لموقعة « كرى » أي
موقعة أم درمان وهي مأساة تستحق البكاء والنحيب .

وإذا أصفنا ما يقوم به نجل المهدي الكبير ، السيد عبد الرحمن
المهدي باشا من معنى غير مشكور في سبيل ربط السودان بمجلة
الإمبراطورية الانكليزية غمرنا الأسى والشجن وقلنا مع القائلين
« النار تخلف رماد » وفضلا على أنه أنزل في هذا السبيل فقد تنهون
في سيف أبيه الذي قال عنه والده ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سلمه
هذا السيف يدا يدا ليحارب به أعداء المسلمين . « غير أن السيد تنهون
وأنى إلا أن يسلم أعز نرات إلى ملك الإنجليز سنة ١٩١٩ (وهو السيف)
ولكن جلالته — تفضلا منه — رفض قبول السيف ورده إليه ولا
نعلم أين هذا الأثر الميمون الآن !! »

الفصل السابع

الثورة المهدية

فذلكة . من هو السوداني . المهدي . الخلفي . العادي .
السيح قديما . ثورة المصريين القدماء من اجل الخلود . الثورة
المهدية من اجل الدين . انصار المهدي . هل كانت الثورة ضرورية
استقالة شردون باشا . تعيين رموف باشا . اعدان المهدي . اقله
رموف باشا . تعيين عبد القادر باشا خطي . اعماله . استدعاء
عبد القادر باشا لمصر . تعيين علاء الدين باشا . تعيين مكس باشا
حاكما عسكريا وهزيمته . تعيين شردون باشا من قبل الدولة
الانكليزية واليا عاما على السودان بقصد اخلائه . اخطاء
شردون باشا . سقوط الخرطوم في يد المهدي

تناول الكتاب المسألة السودانية باهتمام منقطع النظير هذه الأيام
وذلك بعد أن ظل الحديث عنها وقفا على الصحف دهرًا طويلا تنقل
من أخبارها تنفا صغيرة من وقت لآخر ، ومرد هذا الاهتمام البالغ —
في اعتقادي — إلى فضوح الوعي القومي في السودان . هذه حقيقة لا سيبل
إلى نكرانها وإن كان مما يدعو إلى الأسى أن يقف بعض أبناء السودان
من اخوانهم وأبناء عموماتهم المصريين موقف الانكار فالامعاء فالنضال ،
طالبًا للانفصال ، حين جد الجدل وأنى اليوم العصيب ، فتجأزي السودان
مصر شرًا بخير ونكرا بعروف وسيئة بفعل حسن .

نعم أن هناك من يدعون إلى الانفصال ويقولون بلسان غيرهم:
« انظروا إن المصريين يريدون أن يستعمروا السودان حتى يستعبدوا
أهله ويستبدوا بأمور الناس ويستأثروا بخيرات البلاد ويجددوا مآسى
الماضى ، وفاتهم أن مصر الأمم البارة الشقيقة ما استهدفت في الماضى بتاتا
وإن تستهدف في المستقبل ، استعمار ، السودان . وكأني بمصر ولسان
حائها يقول : « كلنا في اطم شرق ، وواجبنا أن نوحّد جهودنا حتى يمكننا
الخلاص مما نحن فيه من محن وارزاء . حتى اذا استرجعنا حقوقنا المنصوبة
استطعنا كاشفاء أن نتعاون فيما بيننا على البر والتقوى ولا نتعاون على
الاثم والعدوان . »

أما عن مآسى الماضى المزعومة فإمامك التاريخ قلب صفحاته وسوف
يجد أن من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٨٤ كنا أنا وأنت يدا واحدة وكانت
الخيرات موفورة والرخاء شاملا والتقدم مطردا . على أن أعصارا مالمبت
حتى قام بعد ذلك فلف كلانا في باطنه .

« وفي سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٢٤ كنا أنا وأنت مغلوبين على
أمرنا عدونا المشترك يعمل على استغلالنا واستنزاف دماننا وإشاعة
الكرهية والبغضاء في نفوسنا بعضنا ضد بعض وما زال هذا العدو حتى
يومنا هذا يقدم السيئة للوطني ويخفي الحسنة عنه وعلى هذا السن جرت
الحكومة فوسى نسي . الى الحسن وتحسن الى المسي . »

« فيتحنن علينا أن نفحص الواقع ونزل عند أحكامه ولا نميل مع

الهُوى لأن كل تفكير تحرك الشهوة صائر إلى الفساد . وكل تدبير أسوسه
الغفلة مصيرة إلى الافتضاح . فتدبروا الأمر بإسادة قبل أن تهجم عليكم
عهد العناء والضعف والخضوع والاستسلام والرضا والانكال وانكم أن
لم تعثروا بالماضى ويستفيدوا من دروس الحاضر خفت عقولكم فلا
تشتروا تعاجل بالأجل واذكروا قوله تعالى :

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم » .
« فليبقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » .

وبعد فلنعد إلى ما كنا بصددہ فنقول :

درج كتاب التاريخ على وصف القواد والزعماء والوقائع وحسب
كأنه لم يعش على أرض السودان ولم يسعد وينالم غير هؤلاء القواد
والزعماء والملوك . وكأنما كانت الأمة السودانية معزل عن الحوادث
يفصلها عن العالم سياج سميك لا ينفذ منه شيء . وكأنما فئت شخصية هذه
الأمة في شخص حاكمها فأعسى تاريخها هو سيره ذلك الحاكم المتصرف في
مقاديرها مهما سامت سيرته وكانت حياته مليئة بالشرور والآثام .

لذلك رأيت لزما على أن أبادر - قبل الكلام عن الثورة المهدية -
بالحديث عن السودانى كما عرفته نتيجة اختلاط ومعاشرة دامت أكثر
من ربع قرن وهذا أقل ما يقتضيه عرفان الجميل ، وما يدعو إليه الواجب .

ظهر السودانى على الكرم فكم من شيخ يملك ثروة طائلة نزع
نفسه إلى الشرف فأفنى ماله فى إكرام الضيف حتى أصبح فى آخر أيامه
فقيرا يكاد لا يصيب إلا الكفاف فإذا دنا الأجل جمع أولاده وقال لهم

• يا بني الاعزاء اجعلوا نفوسكم وأموالكم لضبوفكم فتغذوا بحسن السيرة واحترام الناس لكم • ثم تقبض روحه وهو مبتسم مسرورا .

والكرم من الصفات الانسانية السامية التي تدل على ساحة الطابع ورقة الوجدان وتقدم الفرد في سلم الارتقاء الاجتماعي وهو صفة كلية تنفزع عنها عدة خلال نبيلة . فالكريم لا بد أن تطوى حناياه على الرأفة والإيثار والنجدة والاحساس بالأم الغير . والسودانيون فقيرهم وعنتهم على السواء يعتبرون الكرم واجبا لا معدي عنه ولا شكرا عليه .

وكثيرا ما يقصد الحلة غريب فتتنافس العائلات في الظفر به ولها في ذلك نوادر طريفة تكشف عن أريحية أصيلة وكرم طبعي .

والسوداني علاوة على جوده الدائم وإحسانه الذي لا ينقطع على الفقراء وما يدفعه من ضرائب للحكومة يؤدي سنويا جزءا معلوما من ماله للمحروم وصاحب الحاجة باسم زكاة رمضان . فهو اشتراك بالفطرة من هذه الناحية .

والسوداني لا يخلد إلى الذل والصغار مهما تجلت له وجوه المضاعب والأقدار . وهو لا يطمح إلى المعالي إلا لينال صيتا بعيدا وشهرة واسعة بين أقرانه وفي عشيرته . وهو يؤثر المشون على العار والخوان . يدفعه الفخر إلى سامي الفضائل الطبيعية . وعزة النفس تنهض به إلى الانتقام أو طلب الحق أو الأخذ بالثأر . وهذه تعد من التواضع الشريفة يقيم لها السودانيون منزلة رفيعة ويقرّبونها من القرائن الضرورية المقدسة .

فإن ضفينة أخذ النار تبقى مستورة في صدورهم كالنار تحت الرماد فتأني
الريح ويكشف الرماد فتظهر الأحقاد بالانتقام .

ويمتاز السوداني إلى جانب كرمه بحيائه الرائع . حياة الرجولة الذي
ينزه صاحبه عن الصفات ويسمو به عن ارتكاب النقائص الخلقية . فقلبا
تجد سودانيا يترنج من شدة السكر أو يتنوه بالألفاظ الشائنة التي تنبؤ
عنها الأسماع والسوداني من الناحية الدينية مؤمن أعمق بالإيمان ملتزم
بحدود الشريعة قائم على أحسن وجه ممكن . وهذا الفسك بالدين بدعوه
إلى البر ومحض على مكارم الأخلاق وهو لذلك من أسباب نشر المساواة
ونفسي العدالة بين الناس .

والسوداني موفور الذكاء وقاد القريحة قوى الذاكرة يحفظ الحوادث
بتفاصيلها الدقيقة مهما بعد لها العهد . ويتجلى ذكاء السوداني وما يتجلى به
من صفات عقلية وخلقية فيما فطر عليه كل أولئك الزعماء والقادة والمصلحين
الذين يتسلمون زمام البلاد كلما أدلهم الخطب وتلقت الأمة إلى زعيم
قادر يستطيع الوصول بسفيتها إلى بر السلامة بل وأن ظهور هؤلاء
القادة والمفكرين اليوم لاسطع دليل على الشجاعة الباهرة والإباء
الصادق الذي يتجلى بهما أبناء السودان الميامين . وهذه الصفات نفسها
هي التي ساعدت - إما مباشرة وإما بطريق غير مباشر . على ظهور المهديّة
في السودان ونجاح دعوتها .

• • •

والمهديّة ، وما تنطوي عليه من رغبة منحة في الخلاص من المساويء .

التي يشكو منها قوم من الأقوام وما تهدف إليه من بناء حياة محررة معبدة
قديمة العهد ظهرت في الحقيقة في صور متنوعة وفي عصور متفاوتة في
القدم ولدى أقوام وشعوب اختلفت عاداتهم وتباينت أساليب حياتهم .
وآية ذلك أن الأمم الغابرة كقدماء المصريين والبابليين والفرس واليونان
والرومان وغيرهم . كانوا جميعا يعتقدون عند اشتداد الخطوب في ظهور
(مخلص) . أو مهدي إذا جاز لنا قول ذلك . مهمته (تخلص هذه الشعوب)
من أفة كوارث اقتصادية واجتماعية أو دينية تكون قد نزلت بهم وتاريخ
الأمم القديمة مدعم بالثورات والحروب الداخلية التي ترتد في أصولها
إلى رغبة الخلاص من هذه الكوارث . على يد ذلك (المخلص) أو
(القادي) أو (المسيح) أو (المهدي) أو (المصلح) أو (الإمام المنتظر)
فتى غلب البأس على أمة صارت لا تفكر إلا في ذلك المخلص فيستولي عليها
شيء من الخوس وتصبح سريرة الانقياد سهلة المصدق أي أنها تكون بمثابة
آلة عمياء في يد الطامعين في الرياسة وأصحاب الأغراض الشخصية الذين
يستخدمونها في قضاء مآربهم حتى إذا نجحوا في قضاء وطربهم تركوها
وشأنها تعافى بعد الفشل أنواع العذاب وتنتظر (مهديا) آخر يصدق في
هذه المرة ولا يكذب قد بظهوره الله أو تستبقيه إلى آخر الزمان .

والذي تؤيده شواهد عدة من التاريخ أن فكرة المخلص أو المهدي
ظهرت بين الطبقات المقهورة وهذا لا يحدث إلا بعد انتقال الأمة من دور
البداءة إلى دور الحضارة حين تأخذ السلطة المركزية تنمو وتقوى وتوسع
التجارة ويشيع بين الناس التعامل بالنقود وتكثر عوامل الغنى والسيادة

أى عوامل التفاوت والتفريق بين الأمة الواحدة وظهور الطبقات بينها وما يعقب ذلك من نزاع مستعربين هذه الطبقات فلا يبقى لدى المغبون سوى الأمل في ظهور (مخلص) يبعثه الله لينقذه من العبودية ويرد إليه حقه المبهضوم ويزيل الفوارق بين الطبقات .

وقد اضحك الآن من ثورة قدماء المصريين الذين قاموا بها منذ خمسة آلاف سنة لكي يحفظوا حقوقهم في الخلود بعد المات حيث كان يقال لهم أنه لا يخلد بعد الموت سوى الفراعنة وعظماء الدولة . أما عامة الشعب فالى الهاوية والغناء المحقق ولذلك لا يجوز لواحد من عامة الشعب أن ينشأ ضريحاً على قبره ولهذا السبب تار الشعب المصرى وطلب من حكومته الخلود بعد الموت .

وفي السودان اشتعلت ثورة المهدي بسبب مخالفة تعاليم الدين الحنيف وتبرم السودانيين من النظم القائمة ولما كان أنصار المهدي قوماً بدائيين فقد انقلب القصد وبدلاً من التفكير في إحدى الوسائل لإصلاح المافاسد وإزالة البدع والخرافات استبد بهم الخوف على الدين وسيطرت على أذهانهم الرغبة في المحافظة عليه ، بل صارت البدع والخرافات التي كان يجب العمل على إزالتها جزءاً لا يتجزأ من ذلك (الدين) الذي تمسكوا به واعتقدوا بصحته وآمنوا بصدق الداعين إليه من فقهاءهم وعلمائهم ، وانحصر اهتمامهم في الدفاع عنه كعمل لا غنى عنه إذا هم طمعوا حياة سعيدة بعد الموت وعلى ذلك فقد فضلوا الحياة الآخرة على الحياة الدنيا

وصار كل ما في هذه الدار - دار الحياة القانية - صغيرا في أعينهم . فهم إنما يعيشون في هذه الدنيا وكأنهم ليسوا منها . وقد تمكن من نفوسهم مذهب العدم أى إنكار كل ما في الوجود ووجوب العمل بما يقضيه التخريب ونلزمه الإباداة فهم يهدمون ولا يبنون وقد استجاب الناس الى هذه الثورة الجامعة بدرجات متفاوتة وكان منهم المتطرفون كعرب البقارة والزيقات ودغيم وكنانة فانغمسوا في أعمال السلب والنهب وسفك الدماء واستباحة الحرمات فتم على أيدي هؤلاء الخراب وسقطت البلاد في الهاوية ولم يبق لعقلاء القوم سوى التسليم بمشيئة الأقدار .

والواقع أن هؤلاء العربان لم يبقوا على شيء في طريقهم إلا أبادوه أو نهبوه حتى الأضرحة والمساجد والسواقي والشواديخ والمواشي والمزروعات وغير ذلك ويبدوا أن سبب هذه الشرور وعلة هذا الفساد أن هؤلاء العربان ليس لديهم من القوات والعناد إلا ما يستخلصونه بالإكراه من أيدي الأهليين ومن قاومهم عذبوا كافرين مكرا بل مالمحدا يستحق اللعنة والعذاب .

فلأجل أن نأكل هذه الجحافل الكبيرة ولأجل أن نجد من القوات والعناد ما يعينها على الجهاد (في شأن الله) كان لا بد لهم أن يعمدوا الى ما عمدوا إليه من الاستيلاء عشوة وأفتدارا على كل ما وصلت إليه أيديهم . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هؤلاء العربان قد نشأوا على البداوة ودرجوا على الخشونة ، وحياتهم رحلة وانتقال وإغارة وقتل وسلب فلم يكن للبدن ولا للزراعات في نفوسهم من التقدير والاعتبار مالمحا في نفوس

أهل الحضرة الذين استطاعوا العيش في ظلالها والإقامة في رحابها . وكأني
بهؤلاء العربان وقد أرادوا بفعلهم هذا أن يزيلوا كل أثر للحضارة في
السودان وأن يطبعوا البلاد بطابعهم الخاص وأن يخلقوا عليها مظهر
بداوتهم الذي يوثقونه على ما عداه لاسيما وأن الإمام المهدي ، محمد
أحمد ، كان قد أوصاهم بالعمل على ترك الدنيا وزخرفها والزهو فيها لقاء
الفوز بنعيم الآخرة فركبوا متن الشطاط وسلكوا طريق التهب والاعتصاب
وسلك الدماء وقضوا على معالم الحضارة في كل مكان نزلوا به يطلقون
الاعنة لغرازهم المكبوتة وينتقمون لأنفسهم من أولئك الحضريين
، ناس بحر ، الذين دانت لهم الدنيا وتذوقوا لذائذها وتعالوا عابهم بما
يملكون من مناعم الحياة .

وكان الأنصار ، أنصار المهدي ، وهم الذين يسمون بالدرأويش
من عرب البدو سكان الغرب الذين غلبت عليهم بداوتهم فكانوا من
الرحل لا يستقرون في مكان ولا تربطهم بالأرض التي يسكنونها روابط
وثيقة كما هو شأن الزراع وهم يربصون مواسم الغيث حتى يخرجوا بكل
ما لديهم من نساء وإبل وأبقار وأشنام وخيول يطالبون المرعى . لا يبذلون
جهدا عقليا في تنظيم يديهم الطبيعية كما يفعل أهل الحضرة بل يعتمدون
على ما تفعل الأرض والسماء فإن أمطرت السماء دعوا وإن احتبس المطر
في مكان رحلوا منه إلى مكان آخر وينقسم هؤلاء البدو إلى قبائل وتعيش
هذه القبائل في نزاع دائم ولم يطبع البدوي على الاشتغال بالتجارة فإذا
اشترك مع غيره عن يحنفونها صار عالة لا يعمدو القيام بدور الدليل الذي

عرف الطرق والدروب أو الحارس الذي يحمى قوافل التجار من اعتداءات العربان الآخرين .

وأفراد القبيلة الواحدة متضامنون فيما بينهم أشد التضامن ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما وهم يد على سواهم . إذا ارتكب أحدهم جناية تحملت القبيلة مسئولية الجرم وإذا غنم غنيمة فهي للقبيلة ولرئيسها خيرها وإذا أبت قبيلة أن تحميه لجأ إلى قبيلة أخرى ووالاها وحسب نفسه فردا من أفرادها . فوطن البدوى قبيته وهذا الشعور الذي يربطه بقبيلة يحميا وتحميه هو المسمى « بالعصية » .

ويخطئ من يظن أن أهل البادية لا دين لهم فللبدوى دين وعقيدة ثابتة ويعتقد بوحدانية الله عز وجل ويسلم برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فلا يخطو خطوة دون أن يذكر المولى عز وجل ونيبه الكريم ويعتقد البدوى ألا مرد لحكم القدر لأن الله سبحانه وتعالى هو المسبب لكل شيء . من خير أو شر في هذا العالم ولا إرادة للإنسان ولا حرية في اختيار الطريق الذي يسلكه ، فالإنسان ذرة حقيرة في يد القدر يفعل القدر بها ما يشاء وكم من خارقة يعزوها البدوى إلى فعل الله وإرادته . فينبأ السماء صافية والأرض في راحة وهناء إذ يريج عاتية تتصاعد كأعمدة نحو الفضاء فتعدوا زوايا مربعة تعقبها اضطرابات جوية — من يرق يخطف الأَبصار ورعد بصم الأذان — الله مبدع كل ذلك . الطيور الصغيرة والوحوش الضارية تدب وتسمى وراء رزقها .

الموت يكفل لها القوت والحياة . الخصب والجذب ، الخير والشر . الخطايا
بأنواعها ، الفقر والغنى ، والشجدة والهوان ، والكذب والصدق ، والموت
والحياة . كل ذلك من عند الله .

ويرسم البدوى في ذهنه صورة ، الله ، عز وجل أنه جاثلا في
الأرض ويده سبف المنية وكأس الحياة . فيبقى ذلك طربحا مجتذلا .
ويسبق الآخر ماء الحياة .

ويحرص العربي على تأدية فرائض الدين وفي مقدمتها الصلاة وهنا
يأتى بصح لنا التساؤل هل يحفظ العربي فاتحة الكتاب ؟ الله أعلم .
إن عددا عظيما منهم يجهلون نصها وفضلا عن ذلك فإن لهم في واقع الأمر
صلاة خاصة بهم ذلك بأنه إذا أراد أعزاني الصلاة انتصب قائما ثم رفع
وجهه إلى السماء قائلا : يا الله هَوِّ السماء سمانك والأرض وطانك :
أفرم وأدرك على جلاتك ، الله أكبر ، ثم يضرب يديه على نحره ويختر
ساجدا وبذلك تنتهى الصلاة وهى الصلاة القصيرة فى عرفهم وأما
الصلاة الطويلة فيقيمها العربي قائما ، يا الله . قامت الصلاة والله أقامها .
يا رب فرشت فرأتى تقبل صلاتى . الحمد لله حمد البلاد بالمطر . حمد الأئمة
بالذكر . حمد العين بالنظر . حمد من شاف عوره وستر . يا ماحى
السيئات تمح سيئاتى . يا كاسب الحسنات فكسب حسناتى . وترحمنى
وترحم أهلى وأمواتى . أجرنى من الإثنين ، منكرو منكبرى ، اللى بيدهم
مطرقي حديد : أستغفر الله على ما ألهيت . وأستغفرك على ما أسهيت .

وأسئفرك على ذلة جنيت . وأرحمني حتى وميت .

وإذا سألت إعرابيا : أين الله قال : إن الله يملأ الدنيا كأن له
جواذا أسرع من وميض البرق يطوى العالم من أقصاه إلى أقصاه في لمح
البصر ويراقب الأعمال كلها ويعلم النيات .

هذا ما سمعناه من أفواههم سطرناه لبدرك القارىء الكريم ما كان
عليه هؤلاء الأنصار (أنصار المهدي) من الفهم والإدراك على أنه لما
يجب ذكره أن هذا الكلام ينطبق على عامة البدو وحسب إذ هناك
فقهاء أجلة يعرفون أصول الدين ويؤدون الصلاة كما أنزلت ويجدون
في قيادة الناس إلى الهدى والنور .

وليس الغرض أن نخوض في صحة ادعاء محمد أحمد وعدم صحته بل
نكتفي بأن نشير على القارىء الكريم بمراجعة ما أبداه علماء وفقه من
الآراء السديدة والارشادات المفيدة وبخاصة رسالة العالم الجليل السيد
أحمد الأزهرى وقد أثبت هذه الرسالة القيمة ونعوم شقيقه في الجزء
الثالث من كتابه تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته .

وإمل أنهم ما يؤخذ على دعوة الامام محمد أحمد أنها لم تكن صريحة
تهدف إلى القاية الظاهرة التي كان يهدف إليها السودانيون وقت ذاك
وهي تخلص البلاد من حكم الأجانب الكفار الذين أزهقوا أرواح
البلاد وصادروا أرواقهم وأقواتهم تحت ستار العمل من أجل إبطال

الرق والنخاسه بل لجأ المهدي بدلا من ذلك حتى يكسب الأعران
والأنصار الى الاعتماد على الالهامات العالية وشطحات المنصوفة
والدراويش وهي أشياء وإن كان قد غمض على أتباعه ادراك حقيقتها
ودقة معرفتها على أفهامهم وقتذاك فإن التجارب الطويلة مدة خمسة
وستين سنة لم تثبت أن كشفت للناس عن الحقيقة وجعلت الكثيرين
منهم يشعرون شعورا عميقا ثابتا بأن تلك الخيالات لم تكن الا
حيائل نصبت للتعمية على العامة ولتضليلهم فكانت صدمة شديدة تلك
التي أرغمت المديدين على الاستفاقة من سباتهم فأدركوا - بعد فوات الوقت -
أنهم كانوا آلات محركة في أيدي طغمة من الانتهازين الذين استطاعوا
أن يحكروا أطراف مؤامرة واسعة النطاق تمكنهم من الاستئثار بكل سلطة
في بلادهم وإن أفضى ذلك إلى حدوث نكبة جسيمة تآق على الحرث
والنسل وتلقى بالسودان في أحضان الفوضى الخطيرة .

نعم كان الأجدر بالامام محمد أحمد وأحرى به أن يكفى باستغلال
العوامل التي تضاهرت على إثارة شعور الناس ذلك الشعور الذي
كان يحمل في طياته بذور الحقد والضغينة والانتقام منذ أن حضر
حموئيل بيكر حاكما على خط الاستواء وبدأ عهد التقتيل والتجريد والإبادة
في السودان الأمر الذي ألهب الشعور والب السودانين ضد الأوربيين
وأهل الليفانت وكانت في طليعة الغاضبين الثائرين جماعه (المرافيت)
من الموظفين وقلوب جيش سليمان الزبير وهرود الرشيد والنصباحي
وسكان البحر الأبيض ثم جهافل الجلايين الذين بنمت أولادهم وسيبت

نساؤهم في دارفور وغيرها وذلك إلى جانب كل أولئك الذين ساء لهم أن يروا البلاد تتمرغ في الفسق والدعارة والفساد . أما أن يدعى الإمام محمد أحمد الألطامات العالية ومصاحبة سيدنا الخضر واتخاذ جاسوسا على الناس وأنه خليفة النبي خاتم الرسل . وحيث يقول أنه رأى رأى العين . في حالة اليقظة وأنه أجلسه على كرسيه وقلده سيفه وغسل قلبه بيده إلى آخر ما ذكر فذلك ما أخرج حركته عن دعوة الإصلاح الاجتماعي والديني إلى نورة هو جاء جامعة لا تستند إلى شيء من الحق أو الدين الصحيح .

وما يدعو إلى الأسف أن المهدي أعلن الجهاد وصار يحرص على قتل النصاري في وقت كان السودان يعج فيه الأجانب المسيحيين من التجار وقناصل الدول وجمعيات التبشير الكاثوليك والأورثوذكس والبروتستانت نساء ورجالا رهبانا وراهبات فأثار بمعله هذا الأحقاد الدفينة ومكن الانكليز من توطيد أقدامهم في مصر وأكسبهم من ذلك الحين عطف وإعجاب الدول الأوروبية وضمائم مؤازرتها . ذلك بأن المسلم أصبح في عين المسيحي مجرد ددويش ، يجب إبادة دون شفقة أو رأفة . وآية ذلك أن كتشنر أباح لنفسه الاستمرار في ضرب الدراويش بالقنايل في (كرري) موقعة أم درمان مدة طويلة بعد هزيمة هؤلاء . كما هدم فبة المهدي بالقنايل بل دفعه الحقد والتشفي والاستهتار إلى تبشير صاحب الدعوة الإمام محمد أحمد وإلقاء عظامه في مستنقع وأور . أبو طايح ، كما جاء بكتاب . وليس بأدج ، أو إلقائها في النيل كما جاء

بسيرة المستر تشرشل في مارس وابريل سنة ١٩٤٥ من مجلة الهلال (صفحة ٣٦٧) حيث نقد تشرشل كتشرف لتهوره الأخير ويرى الأول أن صبيحة الانتقام والثأر لغردون قد أذهات كتشرف ورجاله عن واجبه كمحارب بين شرفاء ثم يقول . إذا ما ذنب هذا الجبان المسحى في التراب تحت القبة المهدية بفصل رأسه عن بدنه لحمل الرأس كرمز انتصار . ويقدم بالبدن الناعس في الثيل بأمر السردار وتهدم القبة .

ومن واجبتنا وقد مضت كل هذه السنين الطويلة أن نتساءل الآن هل كانت الثورة المهدية أمراً لا مفر من حدوثه ؟ الواقع أن هذه الثورة أمراً محتوماً وغير محتوم في آن واحد . فقد كانت هناك أسباب كثيرة للثورة ومع ذلك فقد كان في الأماكن إزالة هذه الأسباب إذا أعطى الإنسان شيئاً من اللباقة وحسن التصرف وبعد النظر فإن أهم هذه الأسباب إطلاقاً فكان مباغته البلاد بضرورة إبطال الرق فوراً ودون إمال وذلك بطرق وأساليب هدامة ووحشية فكان الإلغاء — سياسة إلغاء الرق بالسيف والنار — بمثابة حرب صليبية هوجاء ومطاردة صارمة تشيع الرعب في النفوس والفرع في القلوب . وكان (الإلغاء) كارثة وزادت المحنة وعظمت البلوى حينما شاع في طول البلاد وعرضها مقتل سليمان الزبير وأعمامه غدرا وهرون والصباحي وأخبار الفتك بالجلالين العزل وسبي نسايتهم في دارفور وفي كردفان على نحو ما تقدم ذكره وحدث ذلك كله مدة حكم غردون عندما كان حاكماً عاماً على السودان بين عامي ١٨٧٧ ، ١٨٧٩ فامتلات النفوس بالحقن والخوف والفرع الممزوج بالحزن

والحمرة وضح أهل السودان بالشكوى وعات صيحات الاستنكار في كل مكان وصارت البلاد تغلي كمرجل على وشك الانفجار فكنت أينما سرت ترى قلوبا مجروحة وأصواتا مبعوثة ودهشة عصبية بادية في الأيدي ومرقسة على الوجوه وكنت حينما قصدت نجد السودانين المشردين من فلول جيش سليمان وزملائه يهيمون على وجوههم سادى البصر ، خفيفى الخطى ، كأنهم يشعرون بثقلهم على الأرض - ويلوذون في أطراف الأماكن النائية كأنهم يشعرون بثقلهم على الناس يتنفسون خلسة كأنهم يشعرون بثقلهم على هواهم غيرهم - لا يلقون غير نظرات الاحتقار ، ولا يصادفون غير بسمات السخرية والاستهزاء فهم من الناس يفرون وإلى أنفسهم يهربون . يأكل الأسى قلوبهم ويحرق الأنان العميقة ضلوعهم ويبدو الحزن على الوجوه حزنا تسوده الدهشة والذهول ينم عن استسلام صاحبة لأحكام القدر .

وكنت ترى في كل مكان الناس يتكلمون بصوت خافت - أنفاسهم متقطعة يستبد بهم اليأس وكانهم في مأثم وكانت أرواح (الشهداء) من (الجلابة) الذين قتلوا وعذبوا وشردوا ما زالت ترفرف فوق الرموس وكان اشباح هؤلاء الضحايا ما زالت تطوف في كل مكان .

على أن هناك حقيقة ثابتة كثيرا ما أغفلها الكتاب والمؤرخون هي أن قتل سليمان الزبير والقضاء على قواته واحتجاز الزبير بأشأ نفسه في مصر ثم قتل الصباحى وهارون كان من أهم العوامل التي ساعدت على

نجاح المهدي ، ومكنت محمد أحمد من الأمان في دعوته ، وحشد جموع
السودانيين حول رايته ، وذلك لسببين . أولهما زوال ، الشخصيات ،
السودانية العظيمة من الميدان وهي الشخصيات التي أثبتت الحوادث أنه
كان يرسمها أن تتولى زمام القيادة في هذه الأوقات العصية ، وفي
استطاعتها أن تجمع حولها الآن المتذمرين والحاتقين من التجار والجلالين
الذين صادر غردون على وجه الخصوص وأعوانه متاجرهم وأموالهم
وأرزاقهم ، وأوقع فيهم هو وأعوانه كذلك مقتلة عظيمة ، فانضم
الجلالون وعديدون من الأهلين على نحو ما شهدنا إلى الصباحي
وسليمان ، وهارون على اعتبار أن هؤلاء قادة حرب من المنتظر أن
يتم على أيديهم طرد الأجانب (الكفار) من البلاد بقوة السيف
والانتقام للأهلين من الشرور والآثام التي أرتكبها الطغاة الباغون .
ولم يكن في مقدور محمد أحمد ، وهو الفقيه الذي بدأ دعوته من أول
الامر بنشد مجرد الإصلاح الديني والاجتماعي ، وإحياء الملة ، أن يقود
حركة واسعة من أجل التحرير والخلاص ، تعتمد على أساليب العنف
والشدة . ومع أنه قد مر على هذه الحوادث الآن خمسون عاما وزيادة
فإنه ما يزال بعض عقلاء السودان وحكامهم يذكرون أن من أهم
أسباب نجاح دعوة المهدي قتل سليمان وسائر الزعماء القادرين على
الكفاح ، واحتجاز الزبير رحمه باشا في القاهرة على وجه الخصوص .
وأما السبب الثاني وهو مترتب في الواقع عن السبب الأول فيتلخص
في أن الإمام محمد أحمد استطاع استغلال الظروف الناشئة وقت ذاك

نتيجة لإعدام سليمان وأعمامه واستشهاد الصباحي وهارون وغيرهما استغللا مكنهم من تحويل مجرى دعوته الأصلية من المطالبة بالإصلاح وإزالة المساوىء المتفشية إلى ثورة عارضة شعارها تخليص الدين نفسه من الأخطار التي صارت تهدد بزواله على أيدي الكفار الأجانب أمثال غردون ، وأمبلياني ، وجسي ، ومبيداليا ، ولينون ، وسلاطين وغيرهم . ولم يلق محمد أحمد في إجراء ذلك التغيير أية صعوبة . ذلك بأن فلول جيوش سليمان والصباحي وهارون ، وفلول الجلايين الذين (استشهدوا) منهم عديدون في أثناء النضال المستمر بينهم وبين رجال الحكومة صارت تضرب في الفياق والوديان على غير هدى . فتوق جماعاتهم إلى الانتقام ، وتطلب (قائدا) آخرو (مخلصا) ينضوون تحت لوائه . يشن على الكفار القتل بحرا بالارحة فيها ولاشفقة ، ويستأصل شأقتهم من هذه البلاد استصلا .

وكان في هذه الظروف الدقيقة ، أن تعالت الصيحات من كل مكان بأن (الدين في خطر) وأن واجب القوم أن يعملوا متساندين متعاضدين لتخليص الدين من هذا الخطر وكانت هذه عبارات هزت المشاعر وأنساب في النفوس ، ونزلت بردا وسلاما على قلوب الجلايين ومعهم سليمان والزعماء الآخرين ، إذ وجدوا في الدفاع عن الدين غرضا شريفا تحتمه الفرائض على كل سوداني مسلم ، فهم لا ينضوون تحت لواء المهدي للانتقام وحسب مما لحق بهم من أذى على أيدي غردون والكفار بل ومن أجل تخليص الدين الحنيف ، والاستشهاد في سبيل الله . وصرت الدعوة لتخليص

الدين من الخطر الذي كان يتهدهه سريان النار في الهشيم ، فانضم الآن إلى صفوف المجاهدين كل أبناء السودان في الحضر والبادية على السواء أى كل أولئك الذين ذاقوا الأمرين في العامين اللذين قضاهما غردون حكاما أى ، حاكم عام ، وصار شعار الجميع في قومتهم (الدينية) الجديدة :
(فى شان الله) أى الجهاد من أجل تخليص الدين والاستشهاد فى سبيل الله .

على أنه حدث والبلاد تغل بالثورة على هذه الصورة من أقصاها إلى أقصاها ، أن غادر غردون باشا السودان . . . وعلى أثر تدخل الدول وعزل الحديوى إسماعيل ، وكان لذلك آثار خطيرة فى السودان . فقد هيمنت على مصائر الوادى عند بداية الاحتلال البريطانى حكومة ضعيفة فى القاهرة لم يمكنها التفرغ فى شئون السودان تفرغا تاما يساعد على إخماد حركة المهدي قبل أن يستفحل خطرهما . بل أن تدخل الانجليز فى شئون السودان فى سنوات الاحتلال الأولى لم يلبث أن زاد المهدي قوة على قوتها . حقيقة عينت الحكومة محمد رؤوف باشا حكاما أى حاكما عاما على السودان بدلا من غردون ، وكان رؤوف رجلا محنكا . له من واسع الخبرة بشئون السودان - بفضل السنوات الطويلة التى قضاهما فى الخدمة فى القطر الشقيق - ما يجعل الانتصار على المهدي أمرا ممكنا . لو أن الامدادات الكافية وصلته من القاهرة من جهة ولو أن حرية العمل قد كفلت له . ولكن مخاوف الإنجليز من أن يستعيد تجار الرقيق والجلابون نشاطهم بعد ذهاب غردون سرعان ما جعلتهم يضغطون على حكومة القاهرة حتى ترسل أوامرها المشددة إلى رؤوف فى ضرورة القضاء

على الجلايين ومطاردتهم دون هوادة ووجود رؤوف لزأماً عليه في هذه الظروف أن يبقى في مراكزهم أولئك الأجانب الذين عينهم غردون في مراكز الحكم والإدارة فكان استبقاء هؤلاء من الاخطار الجسيمة . ومضاه عن ذلك فإن رؤوف باشا لم يحقق ما عقد عليه الآمال لتهاونه في معالجة دعوة المهدي وكان هذا التهاون خطأ جسيماً آخر ارتكبه رؤوف . وذلك كله في الوقت الذي أخذ رؤوف على عاتقه مطاردة الجلايين والاستمرار على سياسة السيف والنار التي بدأها غردون وأعوانه (الكفار) فوجد محمد أحمد في ذلك فرصة مؤاتية للامعان في نشر دعوته وتحريك الثورة الجارية ضد الحكومة التي استعانت على حد قوله بأجانب وكفار في إنزال صنوف العذاب والفتك والإرهاق بالأهلين قاطبة . وقويت الصيحة (أن الدين في خطر) فكنت ترى السودانيين في كل مكان يرددون « الدين في خطر » وكيف لا يكون الدين في خطر وأنت ترى التصرفاتي يحكم مسلماً ويتحكم فيه وفي كل ما يملك !! يا لها من مذلة وباله من عار كبير .

وعلى ذلك فقد نشط محمد أحمد في دعوته وصار يمزو ما حل بالناس من محن وكوارث إلى خطتهم في الدين وإهمالهم تعاليم الشريعة الفراء . ثم أخذ يكثر من ذكر الآيات القرآنية التي تحرم على المسلم طاعة غير المسلم ويشير بأن الله سبحانه وتعالى سوف يبعث رجلاً يصلح ما أفسده أعداء الدين . ويشيد حكماً أساسه العدل والمساواة المطلقة ويمحو المساوىء والمظالم التي ضاقت بها الدنيا وضح منها السودانيون . وأما هذا الرجل

فهو المهدي المنتظر . ثم أعلن محمد أحمد أنه (المهدي المنتظر) ومن شك في مديته كفر وما أن أعلن مديته حتى أقبل الناس عليه يعلنون إيمانهم الصادق بمديته ويمشون النفس بالخلاص مما هم فيه على يديه . وصاروا يترنمون قائمين :

« بشائر الخير إجت ليثا . بظهور المهدي واليثا »

ولما نادى المهدي بالعصيان والثورة والامتناع عن دفع الأموال المطلوبة - مال المصري - علت الصيحات في كل مكان :

« عشرة في ثرية ولا دفع الطالبة »

وكان مما أيد الدعوة وزاد في مكانة المهدي ورفعة شأنه انهزام القوات الصغيرة التي أرسلها محمد رؤوف باشا للقبض على محمد أحمد وإخماد الحركة وهي ما تزال في مهدها .

فتوالت انتصارات المهدي على جند الحكومة واضطر رؤوف باشا إلى طلب النجدة من مصر ولكن الثورة العراقية في مصر صرفت حكومة القاهرة إلى التفكير جدياً في أمر ثورة المهدي الخطيرة واكتفت بأن استدعت رؤوف باشا وعينت بدلاً منه عبد القادر باشا حلياً حكاماً على السودان .

وما كاد عبد القادر يصل إلى الخرطوم حتى حصنها وجند العساكر من السودانيين . وخفف عن الأهالي ما كانوا يشكون منه وذلك حصار سنار ونكل بزعماء الثورة وحمل علماء الدين على نشر الرسائل في تكذيب المهدي وأدعائه وضيق على أنصاره الخثاق وسد عليهم المسالك ، ثم حاصر المهدي وأنصاره في كردفان وهي منطقة صحراوية - كان من رأى

عبد القادر باشا أن حصارهم فيها وقطع الموارد عنهم كغيل - بمرور الزمن - بأن يقتضى عليهم جميعا بسبب الجوع فلا تلبث نار الثورة أن تخدم جذوتها وادرك عبد القادر نجاحا ملحوظا فصار المهدي يتهم إلى الله في جميع صلواته قائلا : اللهم يا قادر تكفينا بطش عبد القادر . ومن الروايات الذائعة في السودان أن الإنجليز عندما علموا بتجتاح عبد القادر غضبوا ووشوا به لدى الخديوي وأعلمين أنه يريد الاستقلال بالسودان . لا سيما وأن العراقيين هم الذين عينوه في هذا المنصب . فاستدعاه الخديوي وكانت مصر في ذلك الحين في قبضة الاحتلال البريطاني

وعين الخديوي علاء الدين باشا حاكما إداريا وعين سليمان باشا نيازي قائدا عسكريا - في الظاهر . وهكس باشا قائدا عسكريا له السلطة الفعلية على ١٢٩٠٠ جندي من فلول جيش عراقي وخرج هكس لمحاربة المهدي في كردفان على رأس هذه الحملة الكبيرة فكان نصيب هكس الهزيمة الماحقة في صحراء كردفان وسقطت المهمات والأسلحة والذخائر في أيدي المهدي غنيمة باردة . وعندئذ رأت الحكومة الانجليزية أن تعين غردون باشا حكاما على السودان وأن يعهد إليه بإخلاقه . . . فأنظر كيف تمت فصول الكارثة على يديه !!

قبل أن يصل إلى بربر أبقى غردون إلى مديرها حسين باشا خليفه بأن ينشر في طول البلاد وعرضها أن مصر قد تخلت عن السودان وأنه قد عين واليا مفوضا على السودان يتصرف في شؤنه كما يريد . . . وأنه

أبى غردون قد ولى محمد أحمد سلطانا على كردفان ولقيه بصاحب العظمة
وأنه سيعزل كل الموظفين . ويولى نظار القبائل والعشائر حكاما . وأنه
أعفى السودانين من الضرائب المتأخرة لغاية سنة ١٨٨٣ كما أعفاهم من
الطالبة مدة سنتين من تاريخ وصوله . وأنه سيخفض الضرائب إلى نصف
ما كانت عليه وأنه ألغى كل الأوامر الخاصة بمنع الرق وأباح الاتجار
به وفضلا عن ذلك أرسل غردون من كورسكو هدية ثمينة مع رسالة إلى
محمد أحمد ثم كلف حسين باشا بإرسال الرسالة والهدية مع رسول خاص
إلى عظمته .

وعند وصول غردون إلى بربر جمع العمدة والنظار وألقى عليهم
خطابا حوى أنباء كل ما تقدم ثم اردف قائلا :

« خلاص . حكومة الخديوى انتهت من السودان . وكل من يرغب
في الذهاب إلى مصر يرسل على نفقة الحكومة . »

ثم أمر بفتح الطريق بين بربر وكردفان . لم يسكنف غردون بما
فعل بل أعلن أنه يعتزم إرجاع السودان إلى الحال التى كان عليها
قبل الحكم المصرى . وعندئذ نصحه حسين باشا خليفه بالعدول عن
هذا العزم قائلا : « ولو أن القبائل متنافرة ولا يربط بينها رابط إلا
أنها سوف تنضم إلى المهدي فى آخر الأمر . » ولكن غردون لم يأخذ
بنصيحة حسين خليفه باشا .

وفي بربر أصدر منشورا أمر بأن يلصق على أبواب المديرية وباب
الضابطية وفي شوارع المدينة قال فيه : أنه حضر بقصد إعادة المساكن
المصرية إلى مصر - وأمر بفتح الطريق بين بربر وكردفان - وكان مغلقا
بسبب الثورة - وأن الجبابرة العالي الخديوي قد ترك السودان لأهله . الخ .
فأخذ الناس يهاجرون إلى المهدي أفواجا أفواجا بعد فتح الطريق وبعد
سماع تصرعات غردون وكان من جملة من هاجر في مبايعة المهدي ، القاضي
محمد الخبير ، الذي عاد وفتح مديرية بربر فيها بعد باسم المهدي .

وعند وصول غردون إلى الخرطوم (١٨ فبراير سنة ١٨٨٤)
استقبله على الشاطئ جمع من الجند وقناصل الدول ورؤساء الأديان
والعلماء . وقصد غردون إلى مبنى الحكومة ودخل ديوان الحكمادارية
وكان غاصاً بالعمد والاعتيان والتجار فأخرج من جيبه فرمان توابته
ودفع به إلى الشيخ المجدي فقرأه الشيخ على الجمهور بصوت جهوري
ثم وقف غردون خطيبا فقال :

« يقتضى هذا فرمان قد سميت حاكما مفوضا مطلق التصرف على
السودان وسكانه ، ثم أمر بجمع سجلات الضرائب وأحضرت إلى
الساحة العمومية ووضعت فوقها السياط وغيرها من آلات الضرب
وأضرم فيها النار . فضلا عن ذلك فقد ذهب غردون إلى السجن وأطلق
سبيل الجميع ، ما عدا القتلة ، ووزع منشورا على جميع سكان الخرطوم
وضواحيها جاء فيه ما نصه : يا أهالي السودان إعلوا بأن راحتكم هي

غاية ما نرجوه وبما أتى أعلم علم اليقين أن إبطال تجارة الرقيق قد
سأه لكم وها لكم ما وضعت الحكومة عليكم من قصاص وعلى من يزاولها
من تعذيب وغير ذلك مما صدر من الأوامر العالية بشأن تأكيد الغائها
فقد رأيت التماسا لراجتكم أن أبطال كل تلك الأوامر وأمنحكم الحرية
التامة فلا يعترضكم أحد في اتخاذ الرقيق لخدمتكم . ثم وزع منشورا
آخر قال فيه : (١)

ويا أهل السودان قد فصل السودان عن مصر فصلا تاماً فجعلت
محمد أحمد المهدي سلطاناً على كردفان وقد جتكم حاكماً مفوضاً على السودان
والغيت الأوامر الصادرة في منع الرقيق وأعفيت عن المتأخر من
الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ وعن الضرائب سنتين في المستقبل وسأجعل
حكومة وطنية من أهل البلاد ليحكم السودان نفسه بنفسه ولقد نددت
الشيخ عوض الكريم بك أبوسن ليكون مديراً على الخرطوم بدلاً من
علي بك جلاب الذي رفته .

(١) عجيب هذا التناقض من فردون ! ! ألم يعين خلفاً لسواثيل بيكر من
قبل ما كانا لمناحق خط الاستواء لإبطال تجارة الرقيق ؟
— أيسلم فردون عملاً من عليه بالامس حرباً عواناً وبسلوب هدام وحشي ؟
— ألم يأم فردون في السودان حياة كئيبة وعيب وفزع من أجل مصادرة
الرقيق ؟

— هل ارتفعت إنجلترا لهذا التناقض؟ وهل حركت ساكنها لهذا الامر الخطير ؟
— هل احتجت جميعية أبطال الرق ؟ وهل نشطت الدول وحركت ساكنها ؟
لقد وقف مجلس العموم البريطاني بجانب فردون وحيداً وحده ودافع عن سياسته
ورددوها إلى مقتضيات الموقف ونزولاً على حكا الظروف المحلية وهم الذين كانوا
بالامس ينددون بالاطاء في ابهة الرقيق

وأصدرت حكومة غردون منشورا رسميا وزعته في أنحاء البلاد
لخواء أن الجنود البريطانيين أطلقوا ثورة أحمد العرابي في مصر فاستخدم
المهدي محتويات هذا المنشور في أغراضه وعلق عليه شرحا من عنده وأذاعه
في طول البلاد وعرضها ومن قول المهدي في هذا المنشور أن حكومة
مصر الإسلامية حاربت الانجليز حربا دينيا صليبية واستولوا عليها
وبذلك سقطت مصر في يد الانكليز وقبض على كبرائها وأبعدوا عن
بلادهم فصدمت الأهالي قول محمد أحمد لأن ما ذكره لم يكن سوى نأيد
لأخبار الحكومة الرسمية .

وبعد أيام فرضت ضريبة على أصحاب الأملاك والحرف وهي
ضريبة (المردان) أى تقديم الشبان الأرقاء لادخالهم في سلك الجندية
فكان على الأهليين أن يقدموا إثني عشر الف من الشبان الرقيق وكان
نعم الأمر حوالى عشرة جنيهات فلما سمع النخاسون بذلك رفعوا ثمن
الأمرد إلى الضعف . فذهبت هذه الضريبة بما كان متبقيا من مال قليل
لدى أهل الخرطوم . تبع هذه الضريبة فرض ضرائب أخرى دفعها أهل
الخرطوم واعتقد هؤلاء أن هذه الأموال جميعا قد تسربت إلى جيوب
السادة من الموظفين .

وبما زاد الطين بلة أن أهل الخرطوم استيقظوا ذات صباح فوجدوا
شوارع المدينة مليئة بأوراق مكتوب عليها باللغات العربية والانجليزية
والفرنسية دبا أهل السودان عموما وأهل الخرطوم خصوصا قد استولت

حكومتنا البريطانية على حكومتكم المصرية فاطلبوا لأنفسكم الحرية —
الامضاء — رجال بريطانيا العظمى .

فارتاع الناس لهذا الخبر المشنوم وبينما هم يتدبرون معنى ما جاء في
هذه الأوراق وإذا بمنشور آخر يخرج عليهم مهورا بامضاء كبير رجال
الحكومة الانكليزية في مصر يقول : إن حكومة جلالة السلطان عبدالحيد
لم تعد قادرة على تحمل نفقات حربها مع الروميا ولذلك باعت قسما من
أملاكها التابعة لمصر وهو السودان المصري : لحكومة جلالة الملكة
فيكتوريا وتناضت ثمننا لذلك نحسين ومتين مليوننا من الجنيهات وشروط
البيع أن السودانين ليسوا من أحرار المسلمين بل هم ذنوج أرقاء تأخذهم
الحكومة الانكليزية وتبيعهم في أوربا والهند وغيرهما من بلاد البيض
حتى إذا أمسكتهم حكومة انجلترا جميعا وأنفذت فيهم ما تشاء ونحات
بقاعهم من بني جلدتهم أرجعت الأرض إلى حكومة جلالة السلطان ، أما
حكومة جلالة الملكة فتعترض على أن السودانين ليسوا بأحرار ولا
مسلمين ولذا أرسلت مبعوثين من قبلها ليشهدوا بأعينهم هل القوم كما
تقول حكومة الأمستانة التي يعدونها قذوهم دينيا وسياسيا أم الحقيقة
أن ذلك ناشئ عن حيف الاتراك وبغضهم للجنس العربي الذي منه
السودانيون والأمل وطيد أن يكون هذا القول صحيحا وهو رأى حكومة
انجلترا .

(وحمل هذا المنشور قوم من السياح الانجليز بعضهم كثير من

مأجورهم وأخذوا يطوفون في أنحاء البلاد ويحادثون الناس ويعطونهم المنشورات ولسوء الحظ كانوا يلاقون قبولا والاهالي يصدقونهم كأن هذا المنشور منزل من السماء وكأن حامله من الملائكة الطاهرين (على حد ما جاء بمجموعة جريدة الاهرام سنة ١٨٩٦ صحيفتى ١٨٥ - ١٨٦ - واستغل محمد أحمد هذا المنشور وكتب منشورا من عنده حمل فيه على الأتراك حملة منكرة كان قصده منها لإبطال نصائح العلماء لأهالي السودان لا سيما نصيحة استاذ السيد محمد شريف نور الدائم الذي كتب كتابا كان لها تأثير حسن أبان فيها أن أمام المسلمين الذي يجب طاعته هو أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد وسمو الخديوى محمد توفيق نائبه على مصر والسودان وأن طاعتهم واجبة على المسلمين .

مضت الأيام سريعا والحال في الخرطوم تزداد سوءا ومحمد غردون إلى إرسال وكيله استورت بك في باخرة نيلية إلى النيل الأبيض لإشاعة الطمأنينة في النفوس ويعرف الأثر الذي أحدثته منشورات غردون وصحب استورت في هذه الرحلة الشيخ عبد الرحيم شيخ الدويم والشيخ عبد القادر قاضى الكلاكلة وغيرهما من أعيان البلاد . فلما وصلوا الدويم وجدوا الثورة مشتعلة بقيادة أحمد الكاشف وعلى ذلك فإنهم ما كادوا يقتربون من مكان الثوار حتى بادروهم هؤلاء باطلاق الرصاص عليهم فينقلبوا راجعين إلى الخرطوم .

ثم ذهب الشيخ عوض الكريم بك أبوسن إلى الجزيرة ليرى تأثير

مشورات غردون في نفوس الناس . فلم يعد إلى الخرطوم بل أرسل ولده . على الهد . ليخبر غردون بأن مشوراته كانت بمثابة صب الزيت على النار . وأن الثورة مشتعلة في كل مكان . وأن هذه المشورات لم يكن لها من أثر سوى إظهار عجز الحكومة وحمل الأهالي الذين كان ما تزال لديهم بقية من أمل في هذه الحكومة على تركها والانضمام إلى المهدي قبل فوات الفرصة .

وعند ما طلب غردون من الجمعيين والدناقلة والشايكية وقبائل النيل معاونه الحكومة امتنع هؤلاء عن تأييده بسبب قتل سليمان الزبير وأعمامه وهدر دمائهم ودماء ذوي قرباهم كما ذكروا له ما فعله من قبل مع الجلاية ومصادرة أموالهم وقتلهم في خط الاستواء أولا ثم هدر دمائهم ثانيا في دارفور وكردفان كما سبق بيانه وكما أنهت سلاطين باشا (في كتابه السيف والنار في السودان)

وهكذا وصل غردون باشا بسوء تصرفه إلى حالة من الخروج خطيرة أصبح معها في هم مقيم وندم أليم . فالثورة متأججة في جميع الجهات والطرق مسدودة — طريق بربر وطريق سواكن — يسبطن على الطريق الأول محمد الخير وعلى الطريق الثاني عثمان دقنه . وعندما اشتدت بغردون المحنة لم يجد مخرجا من ذلك كله إلا بالالتجاء إلى غريمة الزبير باشا . لأن الزبير فضلا عن علو نسبه على نسب محمد أحمد فهو معروف عند أهل السودان كافة بالشجاعة والكرم وحسن السياسة وأهل الخرطوم

وضواحيها من أهله وأنصاره ومريديه . وله أفضال عدة على كثير منهم منذ أن كان حاكما على بحر الغزال ودارفور .

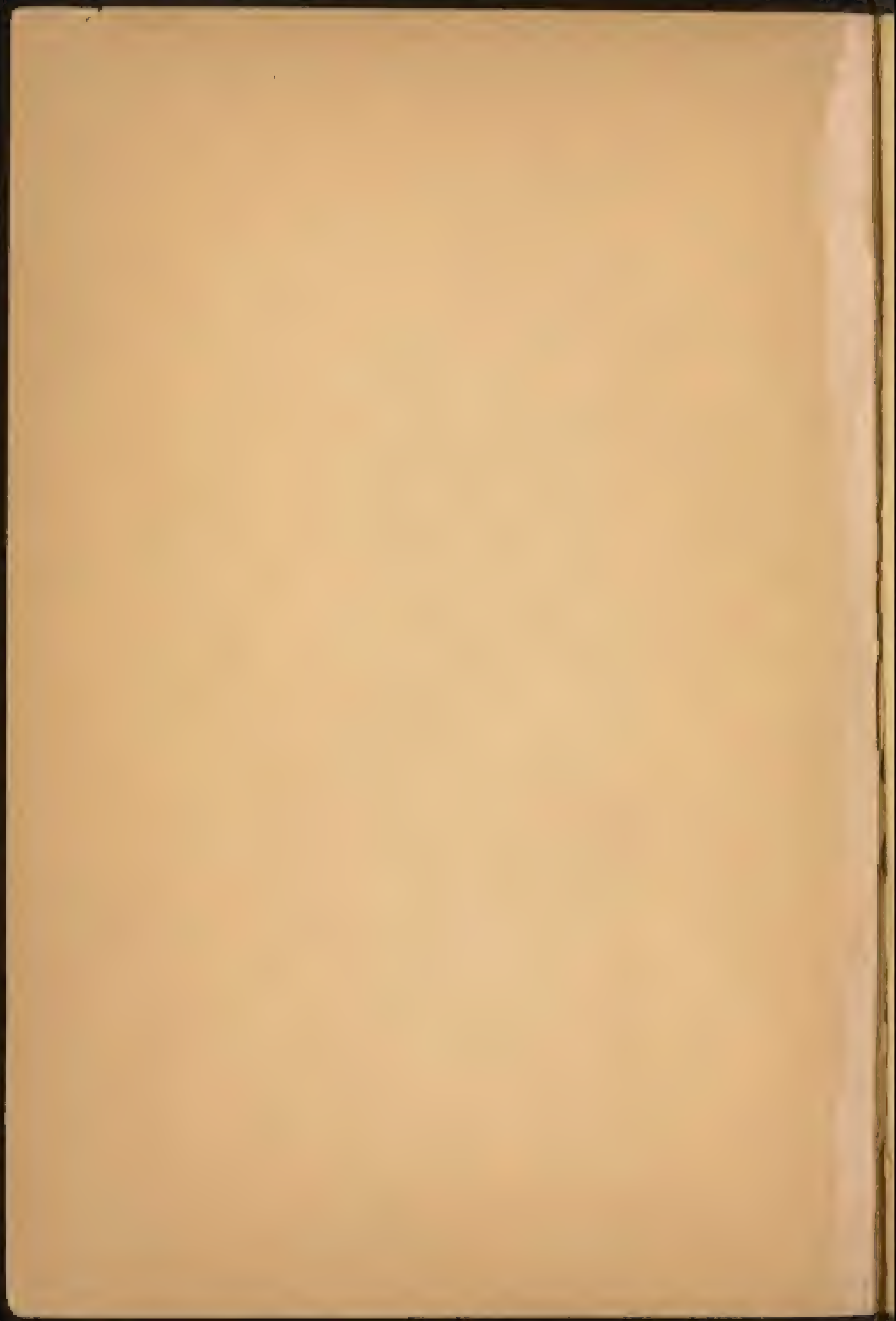
والحقيقة أن الزبير باشا كان رجل الساعة فهو الد المتفوق على محمد أحمد بل ويفوقه قدرة ومكانة . وفي استطاعته أن يجمع جميع القبائل حوله فتعولوا كلمته يقينا على كلمة محمد أحمد المهدي . فبعث غردون يطلب إرسال الزبير إلى الخرطوم حتى يولييه على السودان بشروط معينة (وهذه الشروط الواردة بتاريخ السودان تأليف نعيم شقير) ولكن الحكومة الانكليزية رغم الحاح غردون والحدوي وكرومر رفضت ذلك رفضا باتا بدعوى أن جمعية إلغاء الرق لم توافق على إعادته إلى السودان . ومن ذلك الحين بات مصير غردون أمرا مفروغا منه فإنه سرعان ما دارت الأيام دورتها بعد ذلك ، وهبت العاصفة فهجم الدراويش على الخرطوم — وسقطت عاصمة السودان في أيديهم ، فكان القتل والتشريد وكان السبي والسلب ، ولقي غردون حتفه ، وقتل من معه من الأبرياء .

وبسقوط الخرطوم سقطت السودان في قبضة المهديين (سنة ١٨٨٥) وبدأ الانجليز يفسكرون من جديد في خير الوسائل التي تمكنهم من حجب خيوط مؤامرتهم ليس فقط لانهاء حكم المهدي بل — وكان ذلك من أهم أغراضهم — ولاخضاع السودان لسيطرتهم والاستئثار بالتفوذ الأعلى في حكومته على نحو ما أبدته الحوادث بعد ذلك بسنوات قليلة .

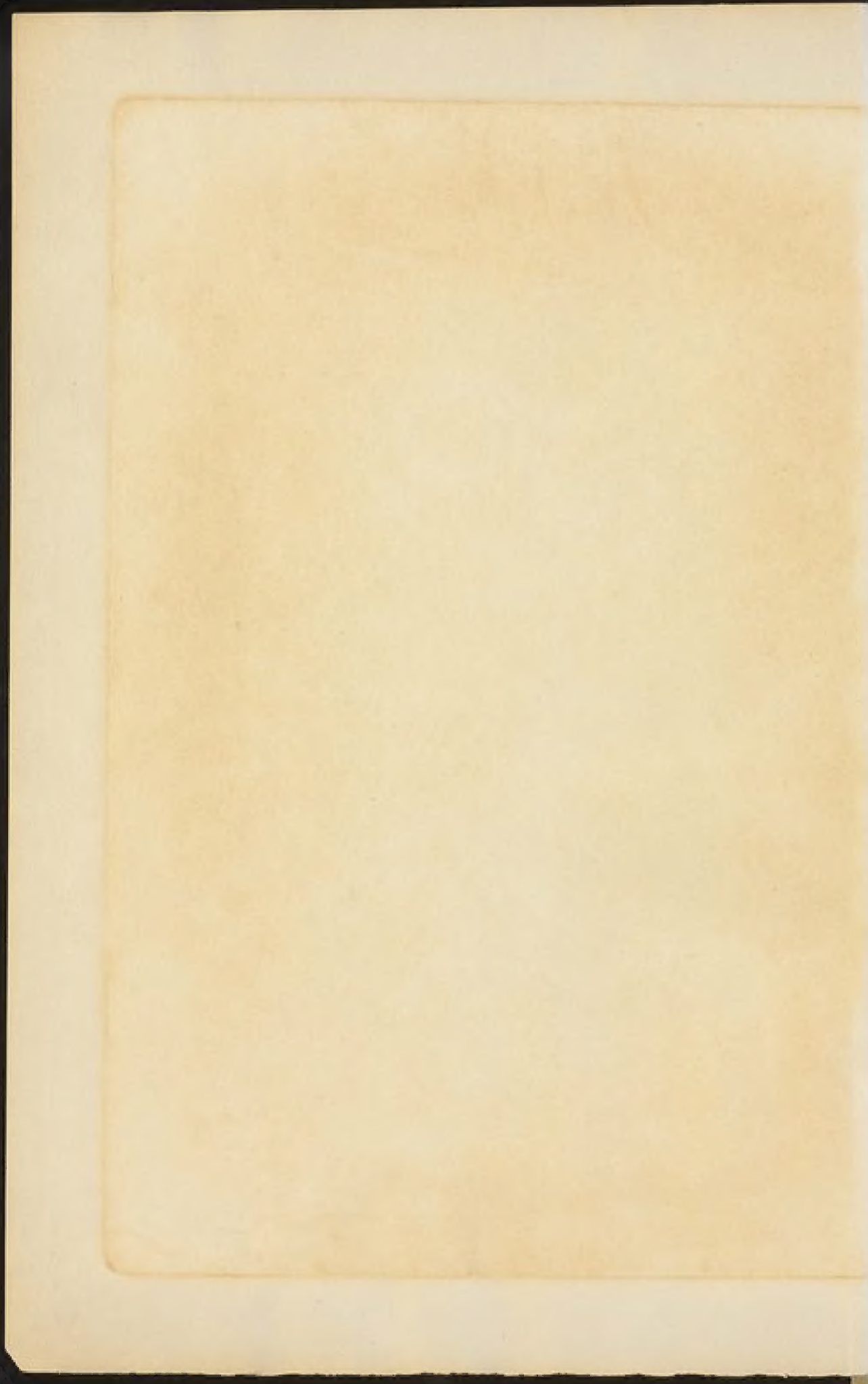
محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
تقديم الكتاب بقلم الدكتور محمد فؤاد شكرى بك	١
توطئة الكتاب بقلم المؤلف	١٠
الفصل الأول - التركيبة السابعة	١٨
فتح السودان بباء على دعوة من أهله . ضم السودان لمصر واعتباره وحدة مشتركة . تقدم السودان نحو المدينة والحضارة والعمران . اشتراك الأهليين فى الحكم .	
الفصل الثانى - التدخل الانجليزى	٤١
الرواد الأجانب واكتشافاتهم . تدخل الانجليز بحجة أبطال الرق . خلق الفتن واثارة الشعور . استئثار الانجليز بالادارة .	
الفصل الثالث - مطاردة الجلايين	٥٠
قتل سليمان بن الزبير باشا وقتل أعمامه غدرا بعد التسليم لجيش باشا . فرار رابع الزبير إلى الغرب . نشاط غردون باشا . أعمال غردون التصفية . دور المرأة فى الثورة واستنهاض الرجال للأخذ بالثأر .	
الفصل الرابع - أبطال الرق ومحاربة الاسترقاق	٨٢
تمهيد . تاريخ العبودية والرق . الرق فى مختلف الأديان . الرق فى الولايات المتحدة . الفوارق اللونية فى أمريكا . منشأ الدعوة لأبطال الرق . حرب الشمال والجنوب من أجل أبطال الرق . المشاكل الجنسية فى أمريكا وأفريقيا . الاندماج الجنسى بين شعوب الوادى . كلمة ختامية .	

الموضوع	صفحة
الفصل الخامس — سيرة الزبير ياغيا رحمة	١١٢
نشأة الزبير باشا . ممارسته للتجارة . مشاركته لأبي عمري المصري . فتح بحر الزبال ودارفور . استدعاء الخديوي له . عودته للسودان . شجاعته المختارة .	
الفصل السادس — سيرة الامام محمد أحمد المهدي	١٢٠
نشأة المهدي . ميله للطريقة السبائية وتبعده . اتصاله بالشيخ القرشي . اتصال عبد الله النعاشي به . تحوالة في البلاد واتصاله بتجار الرقيق وتأيد هؤلاء لدعوته . ادعائه المهدية .	
الفصل السابع — الثورة المهدية	١٢٩
فذلك . من هو السوداني . المهدي . المخلص . القادي . المسيح قديما . ثورة المصريين القدماء من أجل الخلود . الثورة المهدية من أجل الدين . أنصار المهدي . هل كانت الثورة ضرورية استقالة غردون باشا . تعيين رؤوف باشا . تعيين عبد القادر حلي باشا . أعماله استدعاء عبد القادر باشا لمصر . تعيين علاء الدين . تعيين مكس باشا حاكما عسكريا وهرمته . تعيين غردون من قبل الدولة الانكليزية واليا عاما على السودان . اخطاء غردون وتصرفاته . سقوط الخرطوم في يد المهدي .	



A 86





COLUMBIA UNIVERSITY



0026811758

962.4
J 113

BOU

JUN 1 1956

962.4 - J113